


اضواء
على
التاريخ
الاسلامي

...


Bibliotheca Alexandrina
0614619

23

صدر عن دار الثقافة المسيحية ص ٠ ب ١٣٠٤ - القاهرة
جميع حقوق الطبع محفوظة للدار (فلا يجوز أن يستخدم
اقتباس أو إعادة نشر أو طبع بالبرونيو للكتاب أو أى جزء منه
بدون إذن الناشر ، وللناشر وحده حق إعادة الطبع)
٤٠٩/١٠ ط ١ / ٨٤ (١) ٣٠٠٠

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٤/٧٠٥٢

طبع بمطبعة القاهرة الحديثة

أضواء على الإصلاح الانجيلي



National Library and Archives, SOAL
National Library and Archives

دكتور

القس فايز فارس

دكتوراه في الفلسفة واللاهوت

الهيئة العامة لكتبة : الأسكندرية
رقم التصنيف
رقم التسجيل



فهرس

الصفحة	المضوع
٥	مقدمة الكتاب
٧	هل كان الاصلاح ضروريا
٢٢	مارتن لوتر وبدء الاصلاح الانجيلي
٤٢	مبادئ الفكر الانجيلي
٦٣	الاصلاح الديني ووحدة الكنيسة
٧٩	ملحق عن نشأة الكنيسة المصرية
٩٧	نشأة الكنيسة الانجيلية بمصر

مقدمة الكتاب

احتفل العالم البروتستانتي أو الانجيلي في عام ١٩٨٣ بمرور خمسمائة عام على ميلاد المصلح الانجيلي الشهير مارتن لوتر ؛ واحتفلت دولة المانيا الديمقراطية (الشرقية) بنفس المناسبة باعتبار أن مارتن لوتر زعيم فكري ومصلح اجتماعي ظهر من أبنائها وعلى أرضها . واحتفلت الكنيسة الانجيلية في بلادنا المصرية بهذه المناسبة أيضا احتفالات كان لها مغزاها وصداها .

لذلك كان من المناسب أن نلقى ضوءا على الاصلاح الانجيلي الذي بدأ في أوروبا في القرن السادس عشر ، وانتشر منها الى مختلف بلاد العالم ، ومنها بلادنا المصرية . ان كثيرين من أبناء هذا الجيل لا يعرفون الكثير عن تراث الفكر الانجيلي ، وكيف نشأ ، ولماذا هم انجيليون أو بروتستانت ؟ والمعنى الظاهر لكلمة «بروتستانت» هو « الاحتجاج » ، فعلام يحتج هؤلاء المحتجون ؟ وهل كانت هناك ضرورة للإصلاح الديني الذي كان من نتيجته انقسام الكنيسة ، وضياع مظهرها الموحد باعتبارها « كنيسة واحدة جامعة رسولية » ؟ والم يكن ممكنا أن تحتوى الكنيسة حركات الاصلاح وتشملها في داخلها ؟ هذه وغيرها أسئلة تدور في ذهن بعض الناس ، تحتاج الى اجابة وإدراك .

لذلك اردت بعمونة الله ان اقدم هذه الرسائل التاريخية ،
متوخيا قدر استطاعتى الأمانة العلمية ، وعدم المبالغة ، واحترام
التاريخ الكنسى ، باعتبار ان الكنيسة مهما ضعفت وشابتها
المشوائب فى بعض الظروف ، لكنها لم تنزل كنيسة الله الحي ، التى
تحمل رسالته الى العالم ، وتحفظ الايمان المسيحى ، وتسلمه الى
الاجيال المتعاقبة .

وانى اذ اقدم هذه الرسائل ، اقدمها من منطلق الدعوة الى
تجديد حياة الكنيسة ، وعودتها الى فكر فاديها الرب يسوع المسيح
المخلص ، والى شريمته الصادقة الواردة فى كلمته القدسة ، والى
روحه المتجدد فى داخلها والذى يدعوها ان « تحفظ وحدانية الروح
برباط السلام » .

الرسالة الأولى :

هل كان الإصلاح ضروريا ؟

لو تساءلنا : هل كان الاصلاح الانجيلي ضروريا للكنيسة ؟
فاننا نكون كمن يتساءل عن جدوى ازالة الثغبار التراكم على كنز
ثمين نفيس ؛ او عن ضرورة فتح النوافذ في مكان ما ليدخل ضوء
الشمس النقي ، والنسيم المنعش ، ليستطيع القويمون في ذلك المكان
ان يتنفسوا هواء نقياً ، يجدد قواهم ، وينعش نفوسهم .

ان جذور الفكر الانجيلي موجودة في الكنيسة منذ عصرها
الاول ، ولم تفارقها في وقت من الاوقات ، لان الكنيسة مؤسسة
على الاجيال ؛ لكن ظروفها متنوعة كانت تلقى ظلالاً وغباراً على
نقاوة الفكر الانجيلي في الكنيسة بين حين وآخر ؛ وفي كل عصر
من العصور نستطيع ان نجد نفراً من رجال الله يسعون لحياء
البيراث النقي الذي تسلموه من المسيح رب الكنيسة ورسوله
الاطهار ، ليحيوه من جديد ، ويزيلوا ما تراكم عليه من عادات
وتقاليد وثنية على مر الايام والسنين . كان هؤلاء ينجحون تارة ،
ولفترة من الزمن ؛ وتارة اخرى يفشلون او يتعرضون للمقاومة من
سلطات الكنيسة الرسمية التي كانت تسعى للحفاظ على مراكزها
وسلطانها على الشعب .

من الواضح ان الرب يسوع المسيح اثناء تجسده على
الارض ، قصد ان يكون هناك تجمع لتلاميذه والمؤمنين به ، يكون
هدفه تقديم الانجيل للعالم ، وخدمة النفوس المحتاجة ، وبنیان
المؤمنين في شركة المحبة والخدمة . اراد يسوع ان تكون كنيسته
نوراً للعالم وملحاً للارض ، وأداة لنشر فضائله التي هي ثمر عمل
روحه في حياة الناس ؛ وعموداً للحق وقاعدة له في العالم . لم يضع
الرب يسوع نظاماً محسداً لادارة الكنيسة ، ولا أسلوباً معيناً
للعبادة . كل ما أمر به هو عبادة الله بالروح والحق ، والصلاة
له بالايمان ، والكراسة بالانجيل للخليفة كلها ، وممارسة فريضة

المعمودية والمشاء الرباني ، رمزا لغفران الخطايا وعمل روح القدس ؛ وتذكارا لموته الكفاري من أجل البشر . . .

وبعد صعوده كان الرسل يواجهون حاجات الكنيسة كما يشعرون بها ، فوضعوا نظام الشماسة لخدمة المحتاجين ، ونظام الشيوخ المعلمين أو القسوس والأساقفة نظار لرعية ، والسبوح الخبزين ليعتنوا بالشعب ؛ وعندما كانت تظهر مسائل بخلاف فيها الرأي ، كان الرسل والمشايع يجتمعون معا لمناقشوا الأمور ويصلوا الى رأى فيها ، كما نرى في سفر أعمال الرسل .

لكن الكنيسة كأي كيان موجود في عالم الضعف والقصور الذي نحيا فيه ، تعرضت أحيانا كثيرة لعوامل الضعف الانساني ، بسبب الأطماع البشرية في قياداتها ، والابتعاد عن كلمة الله غذائها الحقيقي ، والانسحاق وراء الذنوبيات والأهواء من جانب رجال الدين وعامة الشعب على السواء .

فما أن جاءت العصور الوسطى حتى كانت الكنيسة شيئا يختلف تماما عما كانت عليه في عصرها الأول حين كانت تتجلى فيها روحانية العبادة ، وحرارة المحبة ، وجمال الشركة ، وبساطة الايمان ، ونقاوة الحياة . . . لقد تغيرت الكنيسة وتبدل حالها في ظلمات القرون الوسطى وانشغلت بخلافات عقائدية شكلية ، واهتمامات مظهرية أبعدها عن جوهر الحياة المسيحية النقية ، وسادتها طقوس وخرافات اصطنعها الكهنة والأساقفة ليسيظروا بها على عقول الشعب ؛ وساد الفساد بين رجال الدين وسرى منهم الى عامة الشعب ، فانشطت الأخلاق . ومن يقرأ تاريخ الكنيسة في تلك العصور يقشعر بدنه وترتجف نفسه من هول ما يقرأ من شرور وموبيقات كانت تحدث في أعلى المستويات الكنسية .

ولكى ندرس الحقائق التاريخية دراسة موضوعية ، يلزمنا أن نجرى تقييما موجزا لكنيسة العصور الوسطى ، ما لها وما عليها ؛ وأن ندرس الظروف المتنوعة في المجتمع التي استخدمتها العناية الالهية لتعد المناخ الملائم لحركة الاصلاح الانجيلي في الكنيسة ، مستعرضين بعضا من طلائع الاصلاح الذين اجهضت سلطات الكنيسة حركاتهم الاصلاحية ، فكان جهادهم واستشهادهم دروسا استفاد منها زعيم الاصلاح الانجيلي مارتن لوثر ومن وقفوا بجانبه مؤيدين اياه .

اولا : تقييم موجز للكنيسة في العصور الوسطى :

ليس سهلا ايجاز حقبة طويلة في تاريخ العالم والكنيسة في سطور ، فليعدرنا دارسو التاريخ اذا لم نتوسع في سرد الاحداث ، مكتفين بالاشارة الى بعض النقاط الاساسية الضرورية لتسلسل الفكر دون الخوض في التفاصيل .

١ - كانت سلطة الكنيسة تزداد تدريجيا ، وكذا ثروتها وممتلكاتها ، فما ان جاء القرن الحادى عشر حتى كانت الكنيسة قد وصلت الى قمة السلطة الدينية والدينيوية . فقد كان الاساقفة اصحاب سلطة دينية ومدنية على المقاطعات والدوقيات التي تتبع لهم ، وبعد ان كان الملوك والاباطرة يعينون الاساقفة ، انتزع البابا هذا الحق من الملوك ، بل استطاع بابا روما ان يفرض سلطانه على الامبراطور نفسه .

ونذكر على سبيل المثال انه عندما اعترض الامبراطور هنرى الرابع على رغبة البابا هيلدبراند Hilde brand في تعيين الاساقفة ؛ هدد البابا الامبراطور ، ثم اصدر قرارا بحرمانه . وكان معنى قرار حرمان الامبراطور انه لا يمكن ان يحكم الامبراطورية

٠٠٠ وتوسل الامبراطور الى البابا لكي يلغى قرار الحرمان ، لدرجة انه سافر في الشتاء القارس هو والامبراطورة زوجته وطفلهما الرضيع ، وعبر جبال الالب وسط الامطار والثلوج حتى وصل الى روما ، ووقف على باب القلعة التي كان البابا يسكنها ؛ وقف حافي القدمين ، لابسا ثيابا خشنة ، وهو يتخلل حتى يسمح له البابا بالمقابلة ؛ وظل واقفا مدة يومين طالبا الرحمة حتى سمح له البابا بمقابلته ، ورفع عنه حكم الحرمان بشرط خضوعه التام لسلطة البابا .

٢ - هذه السلطة الرهيبة لم تجعل الكنيسة قوية ، بل بالعكس اضعفتها ؛ فصار الناس يتنافسون للحصول على الوظائف الكهنوتية بمختلف درجاتها ، ويشترونها بالمال والرشوة دون ان تكون لهم أية رسالة روحية او ميول دينية . وعاش رجال الدين حياة خليعة مستهترة انانية ، كل اهتمامهم محصور في المحافظة على سلطتهم وحقوقهم وامتيازاتهم الاجتماعية والمادية .٠٠٠ بل كان منهم من يسعى ليحتل أكثر من وظيفة لينال ايرادات أكبر ، ويعين اناسا اشرارا ليقوموا بعمله . وهكذا فسدت الأخلاق ، وعمت التردية ، والمسكر والعريضة . وابتدأ الناس يحتقرون الكهنة ويكرهونهم ، ومع ذلك كانوا يخافونهم لأنهم تحت سلطتهم . ومن يقرأ الأدب المعاصر لتلك الحقبة من الزمن يشعر بالنقد اللاذع والهجوم الشديد على مخازي الكهنة والأساقفة والرهبان في الأديرة .

٣ - كان طبيعيا والنتيجة هكذا ، ان تنحط الديانة وينعدم التعليم الديني للشعب ؛ فانحصرت الديانة في الطقوس التي كان يعزى اليها الخلاص بكيفية اشبه بالسحر ؛ وفي الصلوات الى ارواح المعزاء والتقيسين بغية نوال بركاتهم ، والخوف

من لعنة الكهنة ، والأرواح الشريرة ؛ والانتكال على الإحبة والتعاويد وذخائر القديسين لتخليص الناس من العذاب .
وصار الشعب دون رعاية روحية ، وضعف اشراف الاساقفة على الكهنة ، واكتفى الكهنة بقراءة الطقوس والصلوات باللغة اللاتينية التي لم يكن الشعب أو حتى بعض الكهنة يفهمونها ونادرا ما كان الكهنة يعظون الشعب هذا في الوقت الذي نسأت فيه في أوربا صحن جديدة ، وتزايد السكان لكن الرعاية والعناية الروحية بالناس قلت بل تكاد تكون انعدمت .

٤ - لكننا ونحن نشير اشارات عابرة الى هذه الحالة المخجلة ، لا ينبغي أن نغفل الخدمة التي قاهات بها كنيسة العصور الوسطى رغم ضعفها وغثورها . ان الانجيليين مجربون أن ينفقوا الى العيوب التي كانت في كنيسة العصور الوسطى وينسوا أن تلك الكنيسة رغم أخطائها هي التي حفظت الايمان المسيحي عبر الأجيال . ان الله لم يترك نفسه بلا شاهد في ذلك الزمان ؛ فقد كان في الكنيسة أتقياء وقديسون من المؤمنين المتعبدين ، ومن الفساك والرهبان الزاهدين الذين سحرتهم كلمة الله وبشارة الانجيل فدرسوها وتذوقوها وكتبوا عنها . ومن أروع ما قيل في هذا الصدد ما كتبه كاتب انجيلي اذ قال :

« لا سبيل الى النكران أنه في وسط ظلمة القرون الوسطى كان هذا الخفر من رجال الله هم المحافظون على مشعل النور ، والقيّمون على هذا الميراث المجيد . وعلى مدار الزمان كنا نرى بعض الناس تثيرهم رسائل بولس فتقفز قلوبهم وتهفو الى بشارة الانجيل وهناك أيضا جماعات متصوفة كانت تجد اشياء عميقة في انجيل يوحنا وهناك دعاة الأخلاق وجدوا نقطة انطلاقهم في العظة على الجبل .

حتى ضمن الأديرة فكثيرا ما كنا نرى الراهبان يتوقنون الى حياة روحية عميقة ، وهناك ديجت براعتهم الكتب المهمة مثل كتاب الاقتصاد بالمسيح لتوما الكمبيسى ، وغيره من الروائع ٠٠٠ ،

٥ - ومن مآثر الكنيسة في العصور الوسطى انها وحدث أوروبا فترة من الزمن بعد ضعف وانهيار الدولة الرومانية التي كانت عامل الوحدة من قبل ؛ ولولاها لتفرقت أوروبا الى جماعات بربرية غير متحضرة بسبب هجمات البرابرة ؛ لكن الكنيسة بسطانها المشامل أخذت هؤلاء البرابرة وهذبتهم وبالرغم من الضعف الخلقى الذى ساد قياداتها ، لكنها غرست في الناس من بذور الأخلاق ما أمكن أن يستمر فيهم ، فبكل أخطائها التي أشرنا اليها استطاعت الكنيسة أن تقدم مبادئ الأخلاق ؛ فخففت ولطفت من القسوة في معاملة العبيد ، ورفعت مقام المرأة ، ودافعت عن كيان الأسرة ، وقالت من احتمالات الحروب ؛ وبالمساعدات الخيرية للفقراء سدت احتياجات المحتاجين مقدما بذلك صورة من الخدمة المسيحية ؛ ولعدة قرون في أوروبا كانت الكنيسة تكون هي المصدر الوحيد للتعليم ، فأغلب مفكرى العصور الوسطى كانوا من بين كهنتها - ان العناية الالهية جعلت الكنيسة - رغم كل أخطائها - عاملا في حفظ المسيحية والحضارة ، الى أن أمسكت خيوط العناية بعوامل أخرى في عصر النهضة الفكرية والعلمية ، لتكون ادوات أخرى لاستمرار الحضارة ، ودفح عجلة التقدم والفكر .

ثانيا : عصر النهضة كتمهيد للإصلاح الدينى :

نحن لا نستطيع أن نتكلم عن الإصلاح الانجيلي دون أن نشير الى العوامل الفكرية والقومية والسياسية التي ظهرت في القرون السابقة للإصلاح والمصاحبة له ، فان كل هذه العوامل مجتمعة معا كانت أدوات في يد الله ، سيد التاريخ ، استخدمها لتحقيق مقاصده العظيمة في العالم وفي الكنيسة ، ليعيد بها للاستنارة الروحية ليعيد الى الكنيسة وجهها المشرق ورسالتها الحية كنور للعالم وعلح للأرض ..

١ - ويطلق المؤرخون على القرن الخامس عشر والقرن السادس عشر اسم « عصر النهضة » أو « عصر الاحياء » ، وبالانجليزية Renaissance ومعنى اللفظ الحرفي « الميلاد من جديد » ، ففي ذلك العصر استيقظت قوى الطبيعة الانسانية ، وغزا العقل البشرى مختلف الجيادين . وكانت أوروبا هي منبع تلك الحركات لأنها كانت مركزا للحضارة في ذلك الوقت ، وسرى تيار الفكر والاستنارة منها الى مختلف بلاد العالم .

ففي عام ١٤٩٢ اكتشف كولومبوس أمريكا ، وتوالت الاكتشافات الجغرافية شرقا وغربا ، وبذلك تحدد شكل الأرض وحجمها الحقيقي - وربما كان من أروع الاكتشافات ما أعلنه كوبرنيكس عن النظام الشمسي وان الأرض هي التي تدور حول الشمس ، ففتح بذلك مجالا خلافا للفكر البشرى للنظر في الكون الذي نحيا في جزء منه - وقد ساعدت الاكتشافات الجغرافية على امتداد التجارة وفتح مجالات جديدة لتسويق البضائع والمنتجات ، الأمر الذي أثار في دول أوروبا المطامع الاستعمارية - وعندما اكتشف فاسكو دي جاما طريق رأس الرجاء الصالح في جنوب أفريقيا ، أصبح الوصول الى شرق أفريقيا وبلاد الشرق الأوسط ميسورا عن طريق البحر فزاد

نشاط التجارة الدولية وأثرى بسببها كثيرون ، بعد أن كان مصدر الثروة في القرون الوسطى قاصراً على امتلاك الأرض ؛ وظهرت طبقات جديدة من التجار الأغنياء .

٢ - وقد صاحب هذه التغيرات الاجتماعية شعور بالقلق وعدم الرضى عند الفلاحين والأجراء ، خاصة في المانيا ووسط أوروبا . وكانت مظاهر عدم الرضى تتجلى بين حين وآخر في ثورات الفلاحين ضد أصحاب الاقطاعيات والشكوى المستمرة من الظلم والتهمر ؛ وكان العمال في المدين يؤيدون الفلاحين ، ويشعرون بأن القوانين الموجودة لا تحمي حقوقهم . وكان العامل الديني فعالا في هذه الثورات اذ أن حقد الفلاحين أخذ يتزايد ضد الكهنة الذين كانوا يستغلونهم ويستفيدون منهم دون أن يعملوا شيئا للتخفيف عن الطبقات المظلومة ؛ وفي نفس الوقت كان بعض الثوار يطالبون بتطبيق المبادئ المسيحية الاصلية في العدالة الاجتماعية .

٣ - وفي ذلك العصر ، اذ ضعفت الامبراطورية الرومانية ، ظهرت الروح القومية في بعض الشعوب التي كانت تحكمها تلك الامبراطورية ، وتحت قيادة بعض الملوك الاقوياء ، والامراء الطموحين ، كانت بعض الشعوب تحتج على تدخل الأباطرة والكهنة الغرباء فشئونها وظهر هذا بنوع خاص في انجلترا ، وفرنسا ، ومانيا . . . وسوف نلاحظ ونحن ندرس حركة الاصلاح الديني ، أن عاملا من العوامل التي ساعدت على نجاحها هذه الروح القومية التي سادت غرب أوروبا ضد حكم وسلطان البابا والكنيسة الرومانية .

٤ - ومن الملامح البارزة لعصر النهضة انتعاش الفكر وانتشار العلم . فعندما سقطت القسطنطينية في يد الأتراك عام ١٤٥٣

هرب كثير من العلماء اليونانيين الى الغرب ؛ وقد كانت اللغة اليونانية مهجورة في أوروبا الغربية ، فلما أعادها هؤلاء العلماء الى الحياة ، فتحت أمام الناس نوافذ رائعة على العلم والفلسفة والآداب القديمة . فنشأت حركة فلسفية فكرية سميت بالحركة الانسانية Humanism تميزت باحياء الآداب الكلاسيكية والروح الفردية والنقدية والتركيز على خدمة الانسان . وعمراً بعض قادة الفكر في الحركة الانسانية اسفار المعهد الجديد في لغته اليونانية الأصلية ، واستطاعوا أن يقفوا وجهاً لوجه أمام الصورة المثالية للكنيسة المسيحية وقارنوا بين تلك الصورة وواقع الكنيسة في ذلك الوقت ، فصار بعضهم من المداعين لاصلاح الكنيسة ، ونذكر منهم جون كوليت John Colet من اكسفورد ؛ وارانسوس Erasmus أستاذ العهد الجديد الشهير . وقد ساعد اختراع آلة الطباعة عام ١٤٥٠ على سرعة انتشار المعرفة وتداول الأفكار بشكل لم يسبق له مثيل - وهكذا تهيأ الجو لحركة الاصلاح .

ثالثاً : طلائع الاصلاح الانجيلي :

١ - ذكرنا من قبل أن جذور الفكر الانجيلي كانت في الكنيسة منذ نشأتها ، ولم تفارقها لحظة ؛ وان كان نورها قد خفت قليلاً أو صار باهتاً ، لكنه كان موجوداً . ونستطيع أن نجد آثار هذا الفكر في أقوال وكتابات بعض آباء الكنيسة وقادتها ، الذين درسوا الانجيل وتأثروا به ، وحاولوا اصلاح الكنيسة من الداخل . ونذكر منهم القديس برنارد (١٠٩٠ - ١١٥٣) الذي صار راهباً وهو في الثانية والعشرين من عمره واشتهر بالزهد والتقشف فكان يتناول وجبة واحدة من الطعام يومياً ، ويصرف أغلب الليل في الصلاة ، ومعظم النهار في العمل الشاق

في الحقول • وقد كان في حديثه ودعا لكنه استطاع ان يويخ
البيابوات والملك لأجل افعالهم واجباتهم • ومن هؤلاء أيضا
دومينيك الأسباني (١١٧٠ - ١٢٢١) الذي اشتهر بالوعظ
والكراسة للوثنيين • ومن الأبطال الروحيين الذين اخرجتهم
كنيسة العصور الوسطى ، القديس فرنسيس الأسيزي
(١١٨٢ - ١٢٢٦) الذي كان من أسرة غنية في وسط ايطاليا ،
واثناء شبابه المستهتر رجع بفكره الى الله فتحول تماما الى
انسان متقن في خدمة الله والناس ، ووزع كل أملاكه على
الفقراء ، حتى انهمه أبواه بالجنون ، وحرمه من الثروة ،
فارتضى الفقر وتأثر بإرسالية المسيح لتلاميذه في الاصحاح
العاشر من انجيل متى ، فخرج كارزا وخادما للجميع ، محبا
للطبيعة والطيور والأزهار ، وتميزت خدمته هو وأتباعه
بالبساطة والبهجة الصادقة والطاعة السعيدة للمسيح •••

٢ - على أنه ينبغي ان نذكر ان أمثال هؤلاء الأبطال كانوا قلة
في الكنيسة ، ولم تصل أفكارهم ورسالتهم الى المساعدة
العريضة لشعب الكنيسة • لقد كانت المسيحية في نظر غالبية
الشعب المسيحي في العصور الوسطى هي ديانة الخوف - لقد
اطبقت الكنيسة بقبضتها القوية على الناس باحياء شعورهم
بالخوف من سلطة الكنيسة في هذه الحياة والحياة الأخرى •
ان الله الذي قدمته كنيسة العصور الوسطى للناس ، هو الله
الديونة الغاضب على شر الناس ، والذي ينبغي على الناس
ليتقوا غضبه عليهم ان يطيعوا أوامر كنيسته التي اعطاها
سلطانه على الأرض • ان الدافع الذي كان يدفع الناس أن
يطيعوا تعاليم الدين ، لم يكن محبة الله ، ولا الثقة به ،
ولكنه الرهبة من تصورهم نتائج العصيان - ولقد اشتملت
الديانة على كثير من المعتقدات والممارسات الخرافية ، بل

ان جهل الناس قادمهم الى مزج بعض التعاليم والممارسات
الوثنية بالتعاليم المسيحية .

٣ - وعندما كان بعض المخلصين والمستنيرين في الكنيسة يحاولون
اصلاح الكنيسة ، كانوا يطالبون بعقد بعض الاجتماع الكنسية
لبحث حالة الكنيسة ووضع خطة لاصلاحها ؛ لكن هذه الاجتماع
الكنسية فشلت في الاصلاح ، رغم انها كانت تضم زبدة
قيادات الكنيسة ؛ ونذكر منها على سبيل المثال المجمع الذى
عقد في مدينة بيزا Pisa عام ١٤٠٩ ، لكنه فشل ؛ ومجمع
كونستانس Constance الذى استمر ثلاث سنوات دون
جدوى لعدم وجود الجدية والحزم عند من حضروه ؛ ومجمع
بازل Basel الذى استمر منعقدا من عام ١٤٣١ - ١٤٤٩
دون جدوى ، حتى تبين لكثيرين انه لايمكن ان يحدث اصلاح
من خلال النظام السائد في الكنيسة في ذلك الوقت ، وكان
لا بد من ثورة تكسر النظام القائم وتنهزه ، حتى يمكن ان يتم
الاصلاح . وقد قام بهذه الثورة بعض الأفراد كل في عصره
وبلده ، لكن سلطان الكنيسة الرهيب كان يجهض حركاتهم
الثورية .

٤ - ففى أواخر القرن الثمانى عشر ظهرت حركة الفلدوسيين نسبة
الى زعيمها بطرس فالدو Peter Waldo الذى كان تاجرا
غنيا من مدينة لليون في جنوب فرنسا . كان هذا الرجل
يتحدث مرة مع بعض أصدقائه فاذا بأحدهم يسقط ميتا عند
قدميه ، فتأثر تأثرا بالغا ، واستفاق ليُتجه نحو الروحانيات ،
وطلب من بعض رجال الدين أن يترجموا له بعض فصول
الكتاب المقدس الى لغة الشعب ، وقرأ هذه الفصول بلهفة ،
وتأثر بالأصحاح العاشر من انجيل متى الذى يروى ارسالية

الرب يسوع لتلاميذه ، فباع أملاكه وأعطى ثمنها للفقراء ،
وجال بين الناس يكرز بالإنجيل ، مفيرا على حق المسيحيين
أن يقرأوا كلام الله باللغة التي ينهملونها ، ذلك لأنه قد راعه
أن وجد كثيرين ممن يدعون أنهم مسيحيون لايسرون بموجب
تعالميم الكتاب المقدس . والعجيب أن السلطات الكنسية
قاومته ، وحكمت عليه هو وأتباعه بالحرمان ؛ إلا أنه ظل
مثابرا على رسالته بالرغم من ذلك ، حتى حكم عليه مجمع
فيرونا عام ١١٨٤ بالموت باعتباره هرطقيا مخالفا لنظام
الكنيسة .

٥ - وفي إنجلترا ظهر في القرن الرابع عشر مصلح عظيم هو
جون ويكليف John Wycliffe الذي عرف بلقب
«نجمة الصباح» ومؤسس حركة اللولارذ Lollards ، وهذا
هو اللقب الذي أطلق في ألمانيا على أتباع ويكليف ، وربما
اشتق هذا الاسم من الكلمة الألمانية Lallen ومعناها
الترنيم والتسبيح ، لأن هذه الجماعة كانت ترتب مرنين
يرتلون للمرضى وهم على أسرة مرضهم . كان ويكليف من
علماء اللاهوت وأستاذ في جامعة أكسفورد ، كما كان كاهنا
في مدينة لثوروث Lutterworth وقد حاز شعبية كبيرة
بين الفقراء وعامة الشعب . واشتهر بالوعظ والترجمة
والتأليف ، وأرسل مبشرين متجولين في البلاد استقبلهم
الناس بالترحاب - ولا رأى ويكليف فساد الكنيسة وحالة
رجال الدين المتحطة ، لم يستطع أن يقف صامتا ، فشن
حملة ضد الفساد ، ودعا الكنيسة أن تعود إلى رشدها لتحقيق
أهدافها الأصيلة ، ثم وجه ضربة قاسية إلى الكنيسة بإنكاره
حق البابا أن يأخذ جزية من إنجلترا . وقد شجعت ظروف

انقسام الكنيسة في وقته ووجود بابا في روما ، وبابا آخر في امينيون بفرنسا ، فدعا الى رفض فكرة البابوية ، وأنكر الرتب السكفوتية ، ومذهب الاستحالة لذلك حرمه البابا وادانته الجامعات الكنسية ، وطردته جامعة أكسفورد . لكنه ظل باقى أيام حياته يترجم الكتاب المقدس الى اللغة الانجليزية التى يفهمها الشعب الانجليزى ، وظل يكتب ويعظ حتى مات عام ١٢٨٤ .

٦ - وفي بوهيميا ، في وسط أوروبا ، ظهر جون هس John Hus في أواخر القرن الرابع عشر وبداية القرن الخامس عشر ، وقد دخل جامعة براغ Prague بعد وفاة ويكليف بخمس سنوات ، وكانت كتب ويكليف قد انتشرت في الجامعة ، فأكب على قراعتها وتأثر بمبادئها - وكانت الكنيسة قد أدانت ويكليف فكان طبيعيا أن يصطدم جون هس أيضا مع الكنيسة خاصة عندما ابتدأ يعظ بالانجيل ويندد بنوع الحياة المستبيحة التى كان الكهنة يعيشونها . وفي عام ١٤١٠ أمر رئيس أساقفة براغ باحراق كتبه ، فحرق في ساحة القصر ما يزيد على مئتي مخطوطة من كتابات ويكليف وهس . لكن الرجل ظل يكتب ويؤكد حقه في الكرازة بحق المسيح كما يفهمه من الانجيل . ثم كتب كتابا مشهورا عنوانه «ناموس المسيح» ذكر فيه ان العهد الجديد كاف لارشاد الكنيسة ، وأن المسيحيين غير ملتزمين بطاعة انبأبا الا في التعاليم التى تتفق مع ناموس المسيح .

على اثر ذلك حوكم جون هس في مجمع كونستانس عام ١٤١٤ (وهو المجمع الذى كان معقودا لاصلاح الكنيسة ا) ، وكانت محاكمته مهزلة اذ أن الحكم كان موقرا بادانته قبل أن يستدعيه المجمع وفي يوم عيد ميلاده الثانى والأربعين سيق جون هس

الى النار ، وربط الى عمود كبير في جزيرة وسط النهر ، وأحرقت
كتبه وملابسه على مشهد منه ، ثم أشعلت فيه اللغيران وهو يتنخم
ويشكو باسم المخلص يسوع المسيح ٠٠٠٠ وبعد حرقه نثر رماده
في مياه نهر الراين خشية أن يقدس أتباعه رفاته ٠٠٠ لكن أتباعه
نهضوا على اثر استشهاده ، ثأثرين على الأوضاع في بلادهم ،
مهاجمين رجال الكنيسة للأخذ بشار زعيمهم ، وقد استطاعوا
بكفاحهم أن يحصلوا على حزيتهم الدينية وينشروا مبادئ مذهبهم
في معظم أرجاء يوهيميا .

٧ - وظهر قبل مارتن لوثر بقليل راهب شائر في مدينة فلورنسا
بايطاليا اسمه سافونارولا Savonarola ، قام برسالة
أخلاقية مصلحة ، وأراد أن يظهر مدينة فلورنسا ، وايطاليا
والكنيسة كلها من الفساد ، وكان يواجه الحكام والعظماء
بشجاعة قائلا « أن أردتم حكومة جيدة ، أطيعوا الله ، وكان
يرسل أتباعه حتى من الأولاد الصغار ليجمعوا له الكتب المخلّة
بالآداب والمصور المثيرة للشهوات ويحرقها بالنار ، في حين
كان الأولاد يلتفون حوله بملابسهم البيضاء وهم ينشدون
الأناشيد الدينية اظهاراً لانتصار الفضيلة وقد واجه
سافونارولا البابا الكسندر السادس الذي كان بشهادة جميع
المؤرخين « حية رطاء يستبيح بكل القوانين ، ويفرق نفسه
في الشهوات ، ممعنا في القسوة لدرجة أنه لم يكن يتورع أن
يدس السم لاتباعه ، ٠٠٠ وأمر البابا بإحراق سافونارولا
هو واثنتين من أتباعه ورفقائه الرهبان ٠٠٠ فأحرقوا وهم
على أيماهم بالمسيح والفضائل المسيحية عام ١٤٩٨ عندما
كان عمر مارتن لوثر ١٥ سنة ٠٠٠

هذا هو فجر الإصلاح الانجيلي ، ومما ذكرنا نستطيع أن
نعرف باليقين : هل كان الإصلاح الانجيلي ضروريا للكنيسة ؟

الرسالة الثانية :

**مارتن لوثر
وبدء الاصلاح الانجيلي**

مارتن لوثر من الشخصيات التي ثار بشأنها جدل كثير خلال الخمسة القرون التي مضت على ميلاده ؛ فمن الناس من نعته بأسوأ الصفات ولقبه بأنه ابن للشيطان ، ومنهم من اعتبره أقرب الى الأنبياء الألهمين الذي أقامتهم العناية الالهية لخير الانسانية وخلصها ٠٠٠ هناك من يتحمس ضده وهناك من يتحمس معه ؟ ومن يقف موقفا معتدلا بين هذين الموقفين يتعرض أحيانا لانتقاد الطرفين .

على أنه من المؤكد أن مارتن لوثر ترك بصماته على الفكر والتاريخ والكنيسة بصورة لا تقبل الجدل ؛ والكتب التي تتحدث عنه خلال هذه الخمسة قرون لا يعادلها في الكثرة إلا ما كتب عن السيد المسيح وبولس الرسول ٠٠٠

فمن هو مارتن لوثر ، وكيف صار زعيما لحركة الإصلاح الانجيلي ، ولماذا ثار على سلطات الكنيسة واصطدم معها ؟

عندما ندرس تاريخ حياة مارتن لوثر ، نرى أنه لم يكن بطبيعته ثائرا ، بل كان مفكرا ؛ ولم يقصد أبدا أن يفصل عن الكنيسة ، لكنه كان مصرا على توجيه الكنيسة نحو رعاية الايمان في نفوس الناس ، فاضطر اضطرارا أن يصطدم مع الرئاسات الكنسية التي كان يرى أنها لا تقوم بواجباتها كما ينبغي .

كذلك لم يكن لوثر كاتباً وعالماً يجلس في برج عاجي مرتفع يضح النظرية ويكتب الكتب ، ويذبح دراساته في العقيدة واللاهوت ؛ لكنه كان محاضرا يلتقي بالطلاب ويتجاوب معهم ، ويلقى عليهم دراساته ، ويتحسس أثر فكره في الغير ؛ كما كان كاهنا يتجاوب مع الأحداث ، ويمسترشد بكلمة الله في إصدار

مكونات فكره ، واتجاهات رأيه فيما يرى ويسمع من أحداث
تجرى حوله .

ولد مارتن لوتر في ١٠ نوفمبر عام ١٤٨٣ في بلدة ايسليبين
في مقاطعة سكسونيا بألمانيا وهذه المقاطعة تقع حاليا في ألمانيا
الشرقية جنوب غرب مدينة برلين وقرب الحدود التشيكية .

كانت أمه مارجريت ليندمان من عائلة غنية ومثقفة ، وكان
أبوه هانز لوثر من عمال المناجم الطموحين ، وكان يتمنى أن يكون
ابنه محاميا لذلك حرص على تقديم أفضل أنواع التعليم لابنه
مارتن . وقد التحق لوثر بالمدارس التي علمته اللغة اللاتينية
والخطابة والموسيقى وغير ذلك من العلوم السائدة في عصره ،
ونال درجة الماجستير في الآداب في عام ١٥٠٥ قبل أن يلتحق
بدراسة القانون .

وفعلا بدأ دراسة القانون ، ولكنه في ليلة من الليالي جمع
أصدقائه الى حفلة في منزله ، وفاقأ أصدقاءه أثناء الحفلة بأنه
دعاهم ليودعهم ، فقد قرر فجأة أن يدخل الدير ليصير راهبا .

وهكذا بدأت علاقة لوثر بالدين والكنيسة . وأنه لن العسير
تلخيص مثل هذه الحياة المنشطة العريضة في وقت وجيز ، لكنني
أرجو في هذا المقام أن اقدم نغرا يسيرا من مواقفه وفكره مقسما
حياته الى ثلاث مراحل :

- ١ - مرحلة الحيرة والتساؤل .
- ٢ - مرحلة التحدى والمواجهة .
- ٣ - مرحلة اليقين والمثابرة .

المرحلة الأولى : الحيرة والتساؤل :

كان مارتن لوثر بطبيعته مفكرا وفيلسوبا ، رقيق الاحساس ،
تأثر باختباراتهِ العائليّة ، والدراسيّة والاجتماعيّة • والمدرسة
التي تعلم فيها سنوات دراسته الأولى كانت تتصف بروح الزهد
والشكّ والامانة والانتضاع حسب فكر القديس فرنسيس
الاسيزي ، وقد قيل انه من بين ما كانت تكلف المدرسة تلاميذها
به أن يتجولوا يستجدون الناس تعبيراً عن القواضع وانكار
المذات •

عندما مات صديق له بمرض خطير ، تأثر لوثر تأثرا بالغا ؛
كذلك عندما مرض هو أثناء شبابه ؛ وعندما اغتيل صديق له اسمه
الكسيس في ظروف غامضة سيطرت على مارتن لوثر فكرة الموت •
كان يتساءل : ما هو مصيري لو فارقت الحياة • وفي عام ١٥٠٥
بينما كان يعبر احدى الغابات انقضت ساعة على احدى الأشجار
واسقطتها امامه ، فارتمى الى الأرض وهو يخشى الموت ، وصرخ
مستنجدا بالقديسة حنة ، وهي القديسة التي كان يلجأ اليها
بالاستغاثة عمال المناجم الذين كان أبوه واحدا منهم وقال :
- يا قديسة حنة ، اذا أنقذتيني من الموت ، فسأكون راهبا بقية
أيام حياتي •

وفعلا كان ذلك ، فقد التحق لوثر بدير للرهبنة الاوغسطينية
التي كان معروفا عنها أنها من أكثر الزهينات تدقيقا وتقشفا
في مدينة ارفرت • ويرى أكثر الباحثين أن دخول لوثر الى الدير
كان تعديرا عن حيرته في أمر خلاصه الأبدي ، وخوفه من الموت ،
ورغبته في أن يتأكد من نوال الخلاص • وقد كان الناس يعتقدون
أن أفضل وسيلة لحياة التقوى ولنوال الخلاص هي الرهبنة •

ويبدو أن لوثر كان راهبا ممتازا في اتمام كل الواجبات المطلوبة منه ، فلم تمض سنة واحدة على دخوله الدير حتى رسم كاهنا في احدى الكاتدرائيات العظيمة في ارفرت ؛ ثم اخذه رئيس الراهبة الخاصة به وهو جون فون ستايبيرتز John Von Staupitz

ليكون تحت رعايته وشرافه ليعده ليكون استاذا ، وفعلا تعين محاضرا في الفلسفة الاخلاقية في جامعة ارفرت ثم في جامعة وتينبرج ، وفي نفس الوقت كان تابعا لرهبته بل اختير معاونا لرئيس الراهبة .

وفي سنة ١٥١١ ذهب الى روما لمهمة تختص بالراهبة التي كان تابعا لها ٠٠٠ وكانت زيارة روما في نظره - ونظر كل راهب وكاهن - هي أمل حياته وفرصة عمره - لقد كان يشفق أن يرى الخنية التي لقبت بانها « اورشليم المقدسة » حيث استشهد القديسون ، وفاضل المسيحيون الأولون ٠٠٠ الخنية التي كانت تمتلىء بالكنايس وحيث توجد فخائر القديسين (بقايا من ملابسهم أو اجسادهم أو ممتلكاتهم) والتي كان يعتقد الناس حينذاك أن من يزور تلك الأماكن يمكنه أن ينال غفرانات كثيرة لخطاياها ٠٠٠

وسار لوثر الى روما على قدميه ، زيادة في التعب والتذلل ، لكن يبدو أن روما خيبت آمال ذلك الراهب الشاب القادم اليها من بعيد ٠٠٠ عنحما وصل لوثر الى ابواب روما ركع على ركبتيه وهتف « انى اخييك يا روما يا مثلثة القداسة بدم الشهداء » ٠٠٠ لكنه فوجيء بحياة الشر والفجور التي كانت تلوث روما ؛ ورأى الكهنة في روما يعيشون حياة البذخ والترف والاسراف وهو الذى تربى على التقشف والصوم والصلوات ٠٠٠ تركت كل هذه الاشياء آثارها في نفسه الحائرة التسائلة .

وأمام كنيسة روما ، كان هناك السلم المقدس المعروف « بسلم بيلاطس » اذ يقول التقليد أن درجاته نقلت من بيت بيلاطس البنطي . كان الناس يعتقدون أن من يصعد درجات هذا السلم الثمانية والعشرين راقعا على ركبتيه ، ويردد على كل درجة الصلاة الربانية ، ينال غفرانا كاملا لخطايا شخص يهبه ويخلص من المطهر ولما كان أبواه لا يزالان على قيد الحياة ، لذلك قرر لوثر أن يصعد هذه السلم لأجل انقاذ جده من المطهر وغلا سعدا وقيل أنه بعد أن انتهى من الصعود هتف وقال « هل أنت سعيد الآن يا جدي بخروجك من المطهر ؟ » ولكن لوثر نفسه يزور هذه الواقعة فيما بعد بقوله :

« لقد أردت وأنا في روما أن أخلص جدي من المطهر ، وصعدت سلم بيلاطس ، وكنت أتلو على كل درجة الصلاة الربانية ، لكن عند وصولي الى النهاية تساءلت في نفسي : ومن يعرف اذا كان هذا الأمر حقيقة أم لا ؟ »

هكذا كان لوثر ، دائم الحيرة والتساؤل ، حتى بعد أن نال درجة الدكتوراه في اللاهوت عام ١٥١٢ وعين استاذا في جامعة وتبرج وكان يحاضر في الزامير ورسائل العهد الجديد ، كان دائم التساؤل .

ونقدم نموذجا واحدا من تساؤلاته ، التي هدته فيما بعد الى ادراك نور جديد من كلمات الكتاب المقدس

كانت تستوقفه دائما الآيات التي تتحدث عن بر الله ، وما أكثرها في سفر الزامير ، وفي باقى اسفار الكتاب المقدس . كان يتساءل : اذا كان الله بارا (وكلمة بار معناها عادل) فكيف يمكن أن يكون رحيمًا مع الانسان الخاطيء ؟

ثم كان يتساءل : كيف يمكن للانسان الضعيف العاجز ان
يرضى هذا الاله البار ؟

كان التعظيم السائد في ذلك الوقت هو ان بر الله عطية من
الله يعطيها لمن يتعاونون مع النعمة ويعملون اعمالا صالحة ،
ويتممون فرائض الكنيسة ، وكان لوثر يشعر ان رغم كل الأعمال
الصالحة التي كان يعملها ، فان الله البار يطالبه ببر أعظم
لا يستطيع هو ان يعمله . . . لم يكن هذا الاحساس وليد هبوط
في مستوى حياته الخلقية ، فقد كان راهبا ممتازا موفيا كل
الفروض ؛ ولكن ذلك الشعور كان نتيجة احساسه بعظمة قداسة
الله التي لا يمكن ان تقبل الفواقص .

يقول لوثر « لقد كرهت هذا التعبير (بر الله) لاني فهمته
بمعنى ان الله العادل لابد يعاقب الخطاة . ولم أستطع ان أحب
هذا الاله البار المنتقم » .

وأخيرا اكتشف لوثر الحل والنور في النص الوارد في رسالة
رومية ١ : ١٦ ، ١٧ « لست أستحي بانجيل المسيح لانه قوة الله
للخلاص لكل من يؤمن . . . لأن فيه ملن بر الله بايمان لايمان .
كما هو مكتوب اما البار فبالايمان يحيا » ويقول لوثر : « أخيرا
أشفق الله على وبدأت أفهم أن عبارة (بر الله) تعني أن الانسان
الذي يؤمن - بمجرد ايمانه فقط يحيا بالبر الذي يمنحه له الله -
هذا البر هو رحمة ونعمة من الله ننالها بالايمان » - ثم يقول
لوثر : « وحالا شعرت بأنني أولد من جديد ، وأن ابواب السماء
قد فتحت على مصراعها أمامي . . . وبقدر ما كنت أكره عبارة
(بر الله) صرت أحبها . . . وهكذا أصبح هذا النص بالنسبة لي
باب السماء » .

لم يكن هذا التعليم – التبشير بالايمان – من تأليف لوثر ،
او حتى من اكتشافه هو ٠٠٠ لكنه التعليم الكتابي الذي نادى به
من قبل القديس أوغسطينوس ، ومن قبله بولس الرسول ، ومن
قبله حبقوق النبي – وكانوا جميعا يعلنون حقيقة عمل الله العجيب
المجاني – لكن لوثر أعاد اكتشافه ، بعد أن كان منسيا ٠٠٠ مهمل
ومتروكا وسط شكليات وطقوس الكنيسة في ذلك الوقت .

هذا الاكتشاف الرائع ، جعل لوثر ينظر الى الحياة بمنظار
جديد ، وينظر الى الكنيسة وطقوسها وقرائنها نظرة جديدة ؛
وزاد من بحث لوثر في آيات الكتاب المقدس ، ليجد فيه ما يروى
ظما نفسه التسائلة والمتعشة الى المعرفة .

المرحلة الثانية : التحدي والمواجهة :

ظل مارتن لوثر بعد اكتشافه الرائع لحقيقة التبشير
بالايمان ، ظل يحاضر في الكتاب المقدس ، ويعظ بكلمة الله فكان
دائما مجددا في فكره ، مقتنعا في منطقته ، واستأسرت كلمة الله
قلوب الناس ، فذاع صيته ، وأقبل الناس على عظاته ، وهرع
الطلاب الى محاضراته ؛ ولم يتعرض هو للكنيسة ونظامها ، الى
أن تفجر الموقف ، ودخل الى مرحلة التحدي والمواجهة عندما جاء
رجل اسمه يوحنا تetzel الى مكان قريب من وتنبرج
ليبيع للناس صكوك الغفران .

وقصة صكوك الغفران طويلة لا يتسع المقام لشرحها . وقد
نشأت وليدة اعتقاد الكنيسة أن من حقها أن تقرض على الناس
بعض العقوبات لأجل خطاياهم ، وكان الغرض من هذه العقوبات
أو التأديبات تعويد الناس على الطاعة والامتثال لأوامر الكنيسة .
فكان على بعض الناس أن يقرأوا نصوصا معينة عدة مرات ، أو

يصوموا فترة محددة وغير ذلك من التأديبات ، لكي يرضوا مطالب الكنيسة ، وينالوا غفرانها لخطاياهم ٠٠٠٠ لكن الحال تطور فأصبحت الكنيسة اذا احتاجت لال ، تصدر صكوكا تُبيعها للناس ، لترفع عنهم العقوبات أو التأديبات الكنسية ٠٠٠ ثم ابتداء الناس يتصورون أنهم بهذه الصكوك يستطيعون أن ينالوا غفران الله لخطاياهم ، وقد شجعتهم الرئاسات الكنسية في هذا الاعتقاد ، لتزداد سلطتها على الناس ، ولتكون هذه الصكوك موردا للمال للكنيسة . وأصبح البابا يصدر صكوكا متنوعة الأشكال والمفعول لغفران أنواع ودرجات الخطايا المختلفة ؛ وكل نوع من الصكوك له ثمن يتناسب مع مقدار فضاة الخطايا التي يغفرها للناس .

في ذلك الوقت أراد البابا أن يعيد زخرفة كنيسة القديس بطرس في روما ، فأصدر عددا من الصكوك أمضاها بنفسه ، وأرسلها الى رؤساء الأساقفة ليتولوا بيعها لحسابه ، بعد الحصول على عمولة لهم .

وقد كلف رئيس أساقفة مينز Mainz - وهي المنطقة المجاورة لوتنبرج - رجلا أو كردينالا اسمه جون تترزيل Tetzel لبييع هذه الصكوك في ابروشينه ٠٠٠ لم تكن تلك الابروشية هي التي يخدم فيها مارتن لوثر ، ولكن الناس عندما سمعوا بوجود فرصة لبيع غفرانات من البابا في منطقة مجاورة ، كان بإمكانهم أن يسافروا مسافة قصيرة الى المنطقة المجاورة ليشتروا للغفرانات ، ويعودوا مطمئنين الى أن كل خطاياهم قد غفرت .٠ كان تترزيل هذا يسير في المشوارع يعرض الصكوك للبيع ، بحوطه الكهنة والراهبان والراهبات ، تدق حوله الأجراس والنواقيس ، وهو يعلن للناس أن ينتهزوا الفرصة ليشتروا

غفرانات ٠٠٠ ويؤكد للناس أن هذه صكوك صحيحة ومضمونة ، تضمن لهم غفران الخطايا الماضية ، والخطايا التي ينوون أن يعملوها ، وتتقذ نفوس أقربائهم وذويهم من المطهر ٠٠٠ كان ينادى قائلًا: « في اللحظة التي ترن فيها نقودكم في قاع الصندوق ، تنطلق النفوس من المطهر وتطير حرة الى السماء » ٠٠٠

ازعجت هذه الأمور لوثر ، كانت القضية التي يهتم بها هي قضية التوبة التي نادى بها المسيح ورسله ٠٠٠ التوبة والحزن على الخطايا التي صلبت المسيح وذاق من أجلها الألم ٠٠٠ لكن الكنسية ابتدأت تبسح الغفران مقابل أسعار كأي سلعة في السوق ٠٠٠٠ كان ذلك خلاصا رخيصا يشترى بالذراهم ، وليس خلاصا ثمينا كلف المسيح حياته ولا يقدر أحد أن يدفع ثمنه سوى المسيح على الصليب ، يقدم مجانا بالتوبة الصادقة والإيمان ٠٠٠

لذلك كتب لوثر ٩٥ قضية يهاجم بها بيع صكوك الغفران ، وعلقها على باب كنيسة وتنبرج في يوم ٣١ أكتوبر سنة ١٥١٧ ، وكان يوم جميع القديسين ، وهو يعلم أن الكنيسة في ذلك اليوم سوف تمتلئء بالناس ٠

كان ذلك هو أسلوب الجامعة في عرض القضايا الفكرية الجديدة ٠ وقد أعلن لوثر في هذه القضايا عقيدته بشأن الغفران وهي أن كل مسيحي يتوب عن خطايا توبة صادقة ينال غفرانا كاملا دون ما حاجة الى صكوك غفران ٠ وأن دعوة المسيح لكل الناس هي أن يتوبوا توبة حقيقية - وأدان في تلك القضايا طمع الكنيسة وتضليلها للناس ، وقال أن البسبا يحتاج الى صلاة الإيمان أكثر من حاجته الى المال ؛ وأن كنز الكنيسة الحقيقي هو انجيل نعمة الله ٠

لم يكن لوثر يريد بذلك انقاص قدر البابا أو الأساقفة ، بل كان معتقد أن من يقومون بتلك الأعمال سيثيئون الى البابا والأساقفة والكنيسة . وقد كتب لوثر هذه القضايا باللغة اللاتينية ، لكن الناس ترجموها الى اللغة الألمانية ، وطبعوها ونشروها ، فأثارت جدلا كبيرا في أوساط الكنيسة - كما تطوح للبعض فأرسلوا نسخا منها الى البابا ، وهكذا اشتد الجدل واحندم النقاش وصار اسم لوثر خلال ثلاث سنين ونصف على كل لسان في أوروبا - سواء من أيدوه أو قاوموه .

لقد كان هدف لوثر مناقشة معنى التوبة ، ولكن المتمسكين بالشكليات والرسوميات اعتبروه انه يتجاوز اقتوات الشريعة في إعلان أفكاره ، واعتبروا أن لوثر بهذه القضايا يهاجم سلطة البابا وعصمته . كان لوثر في ذلك الوقت يثق في البابا كل الثقة ، فكتب له خطابا يشرح فيه موقفه ، ويوضح فيه الكيفية التي كانت تباع بها الصكوك وكيف أن ذلك الأمر يعتبر اهانة للمسيح وعارا للكنيسة . وختم لوثر رسالته بالقول :

« ايها الأب الأقدس اني القى بنفسى أمام قداستكم خاضعا بكل مالى وحالى . احيونى أو اقتلونى . . . انى اقبل صوتكم كما لو كان صوت المسيح متكلمًا عاملا فيكم . فان كنت استحق الموت فلن أرفضه . لأن للرب الأرض وملأها . فليكن اسم الرب مباركا . وليحفظكم الله للأبد » .

لكن تلك الرسالة لم تجد لها صدى في روما ، وقيل عن لوثر انه راهب مخمور مختل الفكر ؛ ثم دعاه البابا ليو العاشر الى روما ، ولكن منتخب سكسونيا أى أميرها وحاكمها المختار ، فريدريك الحكيم ، عرف أن ذهاب لوثر الى روما معناه الموت ،

نطلب أن تنظر قضيته في ألمانيا ٠٠ وجرت بعد ذلك مجادلات ومناقشات كثيرة بهذا الخصوص ، وإرسل البابا مندوبين الى لوثر لمناقشته ، فلم يعدل عن رأيه أو يتزعزع عن موقفه - وفي إحدى المناقشات قال لوثر انه بدراسته للكتاب المقدس اتضح له أنه ليست للبابا سلطة الهيبة على الكنيسة ، وأنه هو ومجامع الكنيسة ليسوا معصومين من الخطأ .

وإثناء هذه الفترة التي دارت فيها الجدل والمناقشات كتب لوثر نداء المشهور الذي عنوانه : « الى نبلاء المسيحيين في الأمة الألمانية » ، وكان هذا النداء دعوة للمقاطعات الألمانية أن تتحرر من سلطة روما ، كما تضمن انكاراً لسلطات البابا والكهنة المتميزة ، معلناً بأن جميع المؤمنين هم كهنة ولهم حتى الاقتراب الى الله مباشرة ، وأنه من حق كل مسيحي أن يقرأ الكتاب المقدس ويفسره ، وأن هذا الحق ليس قاصراً على البابا وحده . كما اشتمل هذا النداء على خطة لكنيسة ألمانية متحررة ومصلحة .

عندما فشلت المحاولات لاسكات لوثر ، سواء عن طريق الكرادلة واللاهوتيين وأشهرهم الكاردينال توماس كاجيتان Cajetan ، أحد كبار الدبلوماسيين واللاهوتيين عند البابا ، وعندما عجزت المرهبة الأوغسطينية التي يتبعها لوثر أن تسكته ، حاولت بعض السلطات الكنيسة أن تقحم ما يشبه الرشوة الى لوثر عن طريق أمير سكسونيا فريدريك الحكيم ، ولكن لوثر رفض هذه المحاولة أيضاً وأخيراً اتخذ البابا ليو العاشر قراراً بانذار لوثر وأتباعه بالحرمان اذا لم يرجعوا عن هذه الهرطقات في خلال ستين يوماً ، وإلا فإنهم يعتبرون محرومين من السماء ، ويحق لأى حاكم أن يعتقلهم ويحكم عليهم بالموت . كما دعا البابا جميع المخلصين

للكنييسة ان يحرقوا كل كتب لوثر . وكان اللرد على ذلك متماثلا مع نفس الانذار ، اذ قام واحد من اصديقاء لوثر والمتحمسين له هو فيليب ميلانكتون بجمع كل نشرات البابا وكتب الكنييسة ودعا الطلاب فى الجامعة ليشاهدوا حرقها ، فعلا قام ميلانكتون بحرقها ومعها قرأز البابا ضد لوثر ، وكان ذلك فى ١٠ ديسمبر سنة ١٥٢٠ ، وبذلك اتخذ التحدى شكلا عظيما جماهيريا عنيقا .

أصدر البابا فى يناير سنة ١٥٢١ قرارا بحرمان مارتن لوثر ، وبأنه يستحق كل عقوبات الهرطقة ، وبقي أن تنفذ السلطة المنفية هذا القرار . وكان يمكن أن يحدث ذلك ويكون مصيره مثل مصير جون هس وغيره من طلائع الاصلاح ، لكن الذى انقذ لوثر هو عطف أمير سكسونيا فردريك الحكيم عليه ، خاصة وقد أصبح هناك مؤيدين لمارتن لوثر فى المانيا ، لذلك رأى فريدريك انه لا يجوز اعدام لوثر دون اعطائه فرصة لكى يوضح أقواله ويدافع عن نفسه .

وبضغط من البابا قرر الامبراطور شارل الخامس أن يعقد مجلسا امبراطوريا لمحاكمة لوثر فى مدينة ورمس Worms بالمانيا فى عام ١٥٢١ . كانت قضية لوثر قد تحولت من مجرد جدل لاهوتى الى قضية تمس سلطة الكنييسة ومجامعها ، بل تحولت ايضا الى قضية سياسية وقومية .

كان الامبراطور من عائلة نمساوية قوية ، وفى نفس الوقت كان ملكا لاسبانيا ، وكان يحلم بأن يبسط نفوذه على أوزبا التى كانت مقسمة الى وحدات سياسية كثيرة ، وشعر أن انقسام الكنييسة لمن يساعده على تحقيق أحلامه . لذلك فمع انه كان يجب أن يسمع أقوال لوثر لكنه لم يكن متعاطفا معه .

وحدد أحد أيام شهر ابريل سنة ١٥٢١ لبدء جلسات الاستماع الى لوثر ومحاكمته . .

وسافر لوثر من وتنبيرج الى ورمس ، وهو يعلم انها رحلة الموت ، لكنه لم يكن خائفا . وذهل انه هو في الطريق وجد كثيرين يرافقونه ، فظهر انه لم يكن وحيدا ، بل كان يكسب مؤيدين ومتعاطفين من كل الطبقات كلما سار مارا ببلدان ألمانيا . . وعندما وقف أمام المجلس الامبراطوري لم يكن ذلك الراهب الوحيد المنزول بل كان بطلا وزعيما لجماعة تقدمية تريد اصلاح الكنيسة واستقلالها .

وأمام المجلس الامبراطوري واجهوه بالكتب التي اصدرها ، وطلبوا منه ان ينفى ما جاء بها ، ويعدل عن أفكاره الواردة فيها . وطلب لوثر فرصة ليتكلم ، وكان البعض يريدون ان يمنعوه من الكلام والبعض يريدون ان يسموه ، واخيرا اعطوه فرصة الى اليوم التالي ليتكلم . .

وفي الغد كان عليه ان يقدم جوابه الفاصل في مجلس مهيب .

كان امامه الامبراطور شارل الخامس ، وشقيقه فرديناند دوق النمسا ، وبعناهما حكام الولايات وأمراء البلاد في الامبراطورية ، وزعماء الشعب من العثمانيين ورجال الدين وبينهم أربعة من الكرانلة ، ثم النبلاء والفرسان وممثلي المقاطعات .

وتكلم لوثر باسهاب عما وصل اليه من كتاب الله ، وحرك القلوب ، ولم يرض ان يتنازل عن موقفه قيد شعرة . وختم حديثه بقوله :

« انى لست لها بل انسان انا ، وانى على استعداد ان اعترف بخطائى فى التعليم اذا كان هناك من يقنعنى بهذا الخطأ من واقع الكلمة الالهية . فلتنصر الكلمة .. كلمة الانبياء والانجيل » .

لكن الامبراطور انتهره ، وسأله عن طريق ضابط كبير ان يجيب اجابة مباشرة عما اذا كان يعدل عن أقواله بعدم عصمة البابا والمجامع المقدسة .. فكان جواب لوثر :
يا سيدى صاحب الجلالة الامبراطور ..

أيها السادة النبلاء ..

أنتم تطلبون منى جوابا واضحا صريحا عما اذا كنت مستعدا أن أعدل عن أقوالى بعدم عصمة البابا والمجامع المقدسة ، وها هو جوابى البسيط :

اننى لا اؤمن بهذه العصمة ، لانه من الواضح والمؤكد ان قراراتهم قد اخطأت مرارا ، فضلا عن أنها يناقض بعضها بعضا فى كثير من الأحيان . وما لم يقنعنى أحد بالاقناع العقلى والمكتابى أن ما أقوله خطأ ، فلن أستطيع ان أغير ما قلت ، ذلك لانى مقيد بكلمات الكتاب المقدس .. نعم ان كلمة الله قد استأسرت ضميرى ، لذلك لا أستطيع ، ولا أريد ، أن أعدل عن شىء من أقوالى ، لأنه ليس من المصواب ولا من الأمان أن يسلك الانسان ضد ضميره . وها هنا أقف ، ولا أستطيع أن أفعل غير ذلك ، والله معى .

وهاج للناظرين فى المجلس ، وناذى بعض الحاضرين من الاسبان وغيرهم هاتفين « الى النار » لكن بعض امراء المقاطعات الالمانية التفتوا حول لوثر ، وأخذوه ليلا متجهين نحو وتنبيرج ،

والتقى بهم في الطريق فرسان اختطفوه على صهوة جواد ، وحمئوه الى قلعة فارتنبورج ، وكان من أرسل هؤلاء الفرسان هو فريدريك الحكيم أمير سكسونيا ، حرصا منه على حياة لوثر .

وقرر المجلس الامبراطوري ادانته وقلته ، لكن احدا لم يجرؤ ان يمد اليه يدا ٠٠٠ وهكذا بدأ فصل جديد في تاريخ الكنيسة وتاريخ حياة لوثر .

المرحلة الثالثة : الميادين والمثابرة :

أخذ لوثر الى قلعة فارتنبورج ، وبعد أن كانت حياته شعبة من النشاط والحركة ، وجد نفسه محدودا في حركاته ، وقد كان يشعر بالأسى وهو يرى الصيادين يطاردون الغزال على القلال ، أو الطيور في الغابة ، وكان يرى نفسه في نفس موقعتها لأنه كان مطاردا من البابا ٠٠٠ ووسط شعوره بشيء من الاكتئاب والضيق ، وجه فكره نحو الله ، فرأى فيه الملجأ الأمين والحصن الحصين ٠٠٠ وتحول الى طاقة خلاقة في ترجمة الكتاب المقدس الى اللغة الألمانية ، لغة الشعب ، فأنجز ترجمة العهد الجديد في وقت قياسي اذ اتم الترجمة في سبتمبر ١٥٢٢ وعرفت بأنها « ترجمة سبتمبر » . ولم يتوقف عند ذلك بل بدأ ترجمة العهد القديم ؛ وكان يقول دائما « اننى أريد أن أجعل الكتاب المقدس يتكلم كشخص ألماني » - أى انه يريد الشعب الألماني أن يفهم الكتاب فهما كاملا بلغته ؛ لذلك كان يذهب الى الحوانيت ومحلات البقالة وانجازة يسأل الناس هناك عن الأسماء الألمانية الصحيحة لأجزاء الحيوانات الواردة في شريعة موسى ، وأسماء الأشياء المختلفة التي يستخدمها الناس في حياتهم اليومية والواردة في الكتاب المقدس ؛ كل ذلك لكي يكون الكتاب المقدس مألوفا وواضحا عندما يقرأه الناس ٠٠٠ كان لوثر يثق في الله ، ويرى ان الله يريد تجديد حياة الكنيسة ، فكتب

شروحات للكتاب المقدس ، وكتبا عن حرية المسيحي ؛ وكان لوثر يحب الترنيمة والموسيقى فكتب بعض ترانيمه المشهيرة ، ومنها الترنيمة المبنية على مزمور ٤٦ والتي مطلعها :

Ein Feste Burg ist Unser Gott.

ومعناها « حصن منيع الهنا لنا » . لقد كان لوثر يحيا في فارتبورج Wartburg ومعناها « قلعة الانتظار » - لأن كلمة Burg معناها « قلعة » أو « حصن » - لكنه كان يرى أن ملجأه الحقيقي هو الله .

وذاعت تعاليم لوثر الانجيلية ، وابتدأ مذهب يكتسب انصارا في المانيا وفي سويسرا ؛ واراد زعماء الكنيسة الكاثوليكية والحكام حينذاك أن يحاربوا هذا المذهب الجديد الذي ابتدأ ينتشر في المانيا بزعامة لوثر ؛ وفي سويسرا وجنوب المانيا بزعامة زوينجلي Zwingli ، فاجتمع مجلس في مدينة شپاير Speyer عام ١٥٢٩ ، وكان عدد الكاثوليك فيه أكثر من عدد الانجيليين ، فرفضوا بعض القوانين التي تحد من حرية الانجيليين وتُعوق تقدم أفكارهم . لكن زعماء ونبلاء الانجيليين قالوا عبارتهم المشهورة We Protest أى اننا نحتج على هذا الظلم والقوانين الجائرة

ويتقول بعض العلماء أن العبارة التي نطق بها زعماء الانجيليين هي باللاتينية Pro Testari أى اننا في صف الشهادة وعلان الحق . . . وسواء كان معنى العبارة الاحتجاج أو الوقوف في صف الشهادة ، فإنه من ذلك التاريخ ظهرت كلمة البروتستانتية ، التي ترمز الى الريادة في المساعدة بحرية الفكر الديني وحزية الاعتقاد - هذه الحرية التي فتحت أمام العالم باب الحضارة والتقدم في مختلف المجالات ، والتي أصبحت حقا أساسيا

تكفله جميع مساتير العالم المتحضر – الحرية التي هي حق لكل إنسان سواء كان ضمن الأغلبية أو الأقلية .

وهكذا نادى لوثر بحرية الانسان ، وفي نفس الوقت نادى بتواضع الانسان وحاجته الى نعمة الله ، وكتب في كتابه « الحرية المسيحية » : « ان المسيحي هو أكثر الناس حرية وسيادة لا يستعبد لانسان ، وفي نفس الوقت هو خادم الكل ، وخاضع للجميع ، لأن المحبة بطبيعتها تخدم وتطيع من تحب » .

ومما هو جدير بالذكر ان ميشيل هارت مؤلف كتاب « الخالدون المائة الذين لهم أعظم التأثير في التاريخ » – والذي يلخصه الأستاذ أنيس منصور في الصحافة المصرية ، ذكر أن العدد الأكبر من هؤلاء الخالدين جاؤا من بلاد تدعى بالبروتستانتية في شمال أوروبا وأمريكا ، وعزا ذلك الى الاصلاح البروتستانتى كان له أعظم الأثر في نشر حرية التفكير الدينى ، وبذلك لم يعد هناك خوف من مراجعة كل الافكار والنظريات القديمة والانطلاق في كل المجالات...

بقى ان نذكر ان مارتن لوثر ، اتخذ خطوة جريئة وهي انه تزوج من راهبة اعتنقت المذهب البروتستانتى ، وقد حاول البعض أن يشوه سمعته بسبب هذا الزواج ، ولكن لوثر قال ما معناه ان هذه العلاقة الشرعية المقدسة لا تشوبها شائبة وأفضل من الشبهات والمبازل التي يعيش فيها بعض الرهبان – ومن العبارات المشهورة عنه انه تزوج « ليجعل الملائكة تضحك والشياطين تبكى » .

وعاش لوثر سنوات عمره الأخيرة في هدوء ، الى ان مات في ١٨ فبراير عام ١٥٤٦ ، ومن آخر العبارات التي كتبها : « أنسا جميعا شحاتون ... هذه هي الحقيقة ... »

هذا هو مارتن لوثر ، الذى أوجتته العناية الالهية ليكون
شرارة اصلاح فى الفكر والكنيسة والتاريخ ...

اننا لا نقدره ، فلسنا ممن يؤلهون البشر ، وتمجيدنا كله
يتجه الى الله وحده ...

ولا نعتبره ملكا لنا نحن الانجيليين دون غيرنا ، فهو ملك
للتاريخ والفكر والكنيسة كلها ؛ والكنائس المسيحية كلها تدرس
الآن افكاره وترى ان رسالته لتجديد الكنيسة من خلال الانجيل
لها آثار تتخطى الحواجز والفوارق بين الطوائف ... ومن أروع
ما قيل بمناسبة مرور خمسمائة عام على ميلاد لوثر . ما أشاد به
البابا يوحنا بولس الثانى بابا روما الحالى من تقديره لحماس
لوثر وغيرته على الانجيل .

وما قاله الأب دانيال اوليفيه الكاثوليكي : « ليس لوثر
وتعاليمه ملكا للكنيسة البروتستانتية وحدهما ، بل هما ملك
للكنيسة الجامعة » - ثم ناشد العالم الكاثوليكي ان يدرس تعاليم
لوثر وقال : « لو وجد لوثر فى عصر البابا يوحنا الثالث والعشرين
وليس فى عصر البابا ليو العاشر لاصطحت المسيحية كلها » .

كما أننا لا ينبغي علينا كانجيليين ان نعتبر لوثر سلاحا
نحارب به الكنائس الأخرى كما فعلنا فى الماضى ، لكننا نكتشف
اليوم أننا جزء من مجتمع كبير نسمى لننمو معا إذ نكتشف أعماقا
أبعد لحياتنا معا ...

ان لوثر كما قال عن نفسه ، انسان ، غير معصوم من الخطأ
... وهناك انتقادات مختلفة يمكن توجيهها اليه فقد انفعل
كانسان ، وتحمس كانسان ، وتطرف أيضا كانسان ... وهناك
ظروف ساعدته ، وظروف أخرى عاقته أو دفعته الى التطرف .

ونحن أيضا اذا تأثرنا بأفكاره ، فعلينا ان نحرض الا نقع
في خطأ احساسنا بعصمتنا من الخطأ ، فننجمد ومن ثم ننتهز
ونضعف ٠٠ ان الكتيمة المصلحة ينبغي ان تصلح نفسها دائما ،
ولا تنطلق على نفسها ، بل تتفتح لتقبل روائع نعمة الله في فكر
خالق دائم التجديد ٠٠٠

ان الهنا مبدع خالق ، فلنكن أبناء أبنائنا الذي في السموات ،
له المجد الى ابد الابدين - آمين -

الرسالة الثالثة :

مبادئ الفكر الانجيلي

عندما تحدثنا في الرسالتين السابقتين عن طلائع الإصلاح الانجيلي ، وعن مارتن لوثر الزعيم الديني ارتبط الإصلاح الانجيلي أو البروتستانتى باسمه ، كنا نتحدث عن تاريخ ٠٠٠ لكن حديثنا عن هذا التاريخ لم يكن مجرد رواية أحداثه ، وتحليل أسبابها ونتائجها ، انما تصدنا أن نوجه الأنظار والأفكار الى الصراع الفكرى ، أو صراع المبادئ الذى تولدت منه شرارة الإصلاح . فهذا ما يعيننا في واقع الأمر .

ليس هناك شك في أن عوامل سياسية وقومية واجتماعية وحضارية ساعدت على نجاح حركة الإصلاح الانجيلي وانتشارها في أوروبا ، ومنها الى باقى بلاد العالم ، لكن هذه العوامل كلها مجتمعة معا ما كانت تستطيع أن تعمل شيئا ما لم يكن وراءها فكر ثورى متجدد خلاق ، استحوذ على العقول ، وأسر الألباب فدفعا الى التغيير . فما هى المبادئ الأساسية للفكر المصلح الانجيلي ؟

اننا اليوم نرى الكنائس الانجيلية كثيرة الفروع والشعب ، يختلف بعضها عن البعض في تفاصيل العقيدة ، وتنوع أساليب عبادتها ، فمنها ما هو قريب من اسلوب العبادة التقليدية كالكنائس الاسقفية واللوثرية ، ومنها من قد تحرر تماما من شكليات العبادة كاجتماعات الأخوة ، ومنها من اتخذ طريقا وسطا بين هذه وتلك ، كالمشيخيين واليهودست والمعدانيين . كذلك الحال في نظام ادارة الكنائس الانجيلية ، هناك كنائس تتخذ في نظامها أساقفة وقسوسا وشمامسة وترسمهم ؛ وكنائس أخرى ترسم شيوخا معلمين هم القسوس ، وشيوخا مدبرين للادارة وشمامسة لخدمة الحاجات ؛ واجتماعات أخرى لا تمارس أى نوع من الرسامة لخدامها ٠٠٠ هناك كنائس نظامها استقلالى فردى ، وكنائس أخرى تربطها بعضها ببعض مجامع أو محافل عامة ، اقليمية أو دولية ٠٠٠

ان الانسان العادى قد يتيه فى وسط هذا الازحام من الكنائس الانجيلية المتنوعة الأسماء والأشكال ، والبعض يعيبرن على المذهب الانجيلى سماحه بكثرة الفرق ، وتعدد الشيع • على اننا نرى انه بالرغم من بعض الضرر الذى تعانىه الانجيلية من جراء هذه الانقسامات المتعددة ، الا ان هناك جانبا مشرقا فى هذه الظاهرة اذا فكرنا فى المبدى لهذه الحرية • وان نظرنا الى الكنيسة القديمة قبل عصر الاصلاح تكفى لتقديرنا لهذه الحرية ، اذ كانت الكنيسة فى القديم تقف سدا فى وجه تفتح القوى وانطلاقها فى الأفراد والجماعات ، وكان ذلك بسبب احتفاظها بحق تفسير الكتاب المقدس للكليروس فقط ، ووقوع هؤلاء الاكليروس تحت رتب متدرجة ، ذات تسلسل هرمى يجلس البابا على قمته ، الأمر الذى حرم الكنيسة من حرية الفكر والانطلاق • فلما تحطم هذا الحاجز عند المصلحين الانجيليين ، تدفقت طاقات الفكر فى حرية - ربما تجاوزت الحدود أحيانا - لكن فى الاجمال أصبحت هذه الفرق بمثابة القنوات التى منها أخذت تجرى أنهار ماء حية منحدره من ينبوع الحياة الرب يسوع المسيح •

ومع أن هناك فرقا وشيئا كثيرة عند الانجيليين ، الا ان هناك اطارا واحدا من المبادئ الانجيلية يجمع هذه الشيع معا ، بالإضافة الى المبادئ التى تتحد فيها جميع الكنائس التى تتخذ من يسوع المسيح ربا ومخلصا وفاديا • وأرجو أن أقدم فكرة موجزة عن هذه المبادئ الانجيلية ، محاولا تضمينها فى أربعة مبادئ :

المبدأ الأول

سمو سلطان الكتاب المقدس

وحق كل مؤمن في قراءته وتفسيره

كانت الكنيسة القديمة لا تُسمح لغير الكهنة بقراءة الكتاب المقدس . وكان هؤلاء يقرأونه باللغة اللاتينية ، التي لم تكن لغة التخاطب بين الناس ، لذلك انعزل الكتاب المقدس عن حياة الناس ولم يكن كتابا حيا يخاطب البشر . كذلك حرمت الكنيسة الناس والكهنة من حق الاجتهاد في تفسير الكتاب المقدس ، وأعطت هذا الحق للبابا والمجامع الكنسية وحدها ، واعتبرت قرارات البابا والمجامع الكنسية معصومة من الخطأ في هذا التفسير .

كان هذا المبدأ هو نقطة الخلاف الأولى بين مايرتن لوثر وبين رؤساء الكنيسة ؛ إذ أن لوثر تمسك بحق كل انسان في قراءة الكتاب المقدس بلغته التي يفهمها . والاستنارة الروحية التي وجدها لوثر كانت من كلمات الكتاب المقدس . وفي دفاعه عن نفسه أمام المجلس الامبراطوري في ورمس سنة ١٥٢١ أعلن انه مستعد أن يعترف بخطئه اذا أثبت أنه هذا الخطأ من كلمات الكتاب المقدس .

الا أن الكنيسة القديمة أصرت على فكرها ، وقد أصدر مجمع ترنت ، الذي انعقد بعد الاصلاح بقليل (١٥٤٥) قرارا يضع قيودا شديدة على قراءة الكتاب المقدس بلغة الشعب ، إذ جاء فيه :

« لما كان قد ظهر من الاختيار انه اذا سمح لكل انسان بدون تمييز قراءة الكتاب المقدس المترجم الى لغة الشعب .
فان تهور البشر الناجم عن قراءته يسبب شرا أكثر من الخير : لذلك وجب الحصول على اذن خاص للسماح بقراءة الكتاب المقدس المترجم الى لغة الشعب » .

فضلا عن ذلك ، فان ذلك المجمع تمسك باضافة التقليد الكنسى كمرجع للدين المسيحى بقوله :

« ان المرجعين العظيمين لدى الدين المسيحى هما الكتاب المقدس والتقليد الكنسى » .

الا أن الانجيليين ، مع احترامهم لتاريخ الكنيسة والتقليد الكنسى كاقوال الآباء وممارساتهم ، لكنهم يصرون على رفض كل تقليد مهما قدم عهده ، أو كانت عظمة شخصية مبدعة ، الا اذا كان متناسقا مع كلام الله فى الكتاب . ان مرجع الانجيليين للوحيد هو الكتاب المقدس ، باعتباره القانون الوحيد المعصوم للايمان والأعمال . لا يفكر الانجيليون ان التقليد يلعب دورا هاما فى حياة الناس ، وجميع الأديان لديها مع الكتب المقدسة نوعا من التقاليد تفسر الوحي ؛ لكن الانجيليين يدرسون التقليد كنوع من التاريخ ، ويرون أن بعض التقاليد تفسر الوحي لكنها لا تفهمه . أى أن الكتاب المقدس كامل وهو وحده أساس العقيدة والسلوك . صحيح ان مجامع الكنيسة هي التي اقرت قانونية الأسفار فى الكتاب المقدس ، وكان ذلك بناء على أدلة داخلية فى الأسفار نفسها ، أو فى أسفار نظيرها فى الكتاب أو أدلة وقرائن خارجية أخرى . لكن الكتاب المقدس فى النهاية هو الذى يتكلم ويكمل بعضه بعضا .

لذلك جعل الإصلاح الانجيلي الكتاب المقدس وحده أساسا لكل العقيدة . انه يحتوي على المسيح انذى هو كلمة الله - الكلمة الكائن مع الآب منذ الأزل ، وقد تجسد بظهور السيد المسيح على الأرض هذا الكلمة المتجسد هو أساس الكنيسة وهو الذى يتكلم فى أسفار الكتاب المقدس ، وهو الذى يعطى الحياة والقوة للكنيسة على الدوام - فالكتاب المقدس له سلطانه الكامل ، ومركزيته فى الكنيسة بأعتبره كلام الله ، أو المجال الذى يتكلم فيه المسيح للكنيسة .

وفى كتاب مارتن لوثر « الى نبلاء الأمة المسيحية الالمانية » ذكر عن بعض الحواجز أو الأسوار التى وضعتها الكنيسة لكى تحتفظ بسلطانها وسيادتها على الناس ؛ ومن هذه الحواجز « حق الاحتفاظ بتفسير الكتاب المقدس للاكليروس فقط » قال لوثر « ان تفسير الكتاب المقدس حق للجميع ، لأن روح الله هو الذى يعمل فى القارئ سواء كان كاهنا أو علمانيا ؛ عالما أم عاميا لكى يفهم الكتاب » .

ومن أقوال لوثر الشهيرة « ان الله الذى جعل حمازا يتكلم لكى يوبخ نبيا هو بلعام ٠٠٠ الا يمكنه أن يتكلم على فم انسان تقى لكى يوبخ البابا ؟ ! »

بقى أن نذكر أن هذا الحق ، وهذه الحرية فى تفسير الكتاب المقدس ، لا تذكر امتياز العلماء ، وأهمية الموضوعية فى التفكير عند دراسة كلمة الله ؛ وليس معناها ان يتسرع الانسان فى الوصول الى نتائج فى تفسيره للكتاب المقدس ويرفض بعناد المشورة العلمية ، والحكمة الناجبة من الدراسة المستفيضة ، ويصر على

تفسير جاهل للكتاب ٠٠٠ بل يعنى هذا الحق أن أى انسان
يستطيع أن يقرأ الكتاب المقدس ، ويمتحن بكافة الوسائل على
فهمه ، وفي نفس الوقت يكون مستعدا للاقتناع بخطأ تفسيره ، لذا
استطاع انسان أكثر منه علما ومعرفة ان يقنعه بغير رأيه من واقع
الكتاب المقدس .

وان الترجمات الكنيية للكتاب المقدس ، اى الآف اللغات
واللهجات ؛ ودور الكتاب المقدس التي تهتم بهذه الترجمات وبتوزيع
الكتاب في كل أنحاء العالم ، انما هي ثمرة رائحة من ثمرات الجسد
الانجيلي .

المبدأ الثاني

الخلاص بالايهان وحده

وقد كان هذا المبدأ هو الضياء الذى أنار طريق الحياة أمام مارتن لوثر ، والذى أعاد اكتشافه من واقع دراسته لكلمة الله ، كما ذكرنا فى حديثنا عن حياة لوثر ٠٠٠

لقد كانت الكنيسة فى العصور الوسطى تفرض على الناس بعض الفروض والمراسيم والأسرار تعتبرها لازمة للمصالحة مع الله ٠٠ وكان الناس يضطرون الى تقديم الصلوات فى مزارات القديسين والشهداء ، ويزورون الأماكن المقدسة معتقدين انهم بذلك يتقربون الى الله وينالون البركة الروحية ، فتغفر لهم خطاياهم ، ويتصالحون مع الله ، وينالون السلام ٠

وقد جرب مارتن لوثر كل هذه الطرق ، وتمم هذه الفروض ، ومع ذلك لم يشعر بالسلام ٠٠٠ شعر بأن الاله البسار القدوس لا يمكن أن ترضيه هذه الممارسات وهو الاله الذى يتطلب الكمال من الانسان ٠ ومن هو الانسان الكامل الذى يستطيع أن يرضى هذا الاله المقدس ، مهما عمل من فروض ، اذ الجميع أخطأوا وأعوزهم مجد الله ٠ وبعد كفاح روحى طويل أشرق نور الحق على ذهنه ، فعرف ان الغفران الذى يطلبه هو عطية الله المجانية ، التى يمكن أن يحصل عليها الانسان بمجرد الايمان بيسوع المسيح ٠٠٠ وان قبول الله لهذا الايمان كواسطة للخلاص ، ليس حقاً يطالب به الانسان الله ، بل هو نعمة من الله ، ورحمة منه ٠٠٠ فان الله ليس ملتزماً بأن يقدم الخلاص الى الانسان مجرد ايمانه ، ولكنه بحسب رحمته الكثيرة ، ارتضى أن يقبل الايمان كوسيلة للخلاص ، ورضى

أن يحتسب بر المسيح ، للانسان المؤمن • ومع أن الانسان لا يكون باراً بالفعل ، لكنه يتبرر أمام الله بالايمان بيسوع المسيح •••

هنا وضحت آيات الكتاب المقدس أمام مارتن لوثر ، وتجلت الحقيقة أمام عينيه •

فإذا كان الناس أمواتا بالذنوب والخطايا ، وبالطبيعة كانوا أبناء الغضب ، الله الذى هو غنى فى الرحمة ••• من أجل محبته الكثيرة التى أحبنا بها ، ونحن أموات بالخطايا أحيانا مع المسيح ، وأتمنا معه ، وأجلسنا معه فى السماويات فى المسيح يسوع ••• بالنعمة انتم مخلصون بالايمان • وذلك ليس منكم • هو عطية الله • ليس من اعمال كيلا يفتخر احد ، •

(أفسس ٢)

ان الفكر الانجيلي يؤكد أن الخلاص هو بنعمة الله وحدهما • فالتبرير لا يمكن أن يكون بالايمان والأعمال معا ، فهو اما بالنعمة أو بالأعمال ، ولا يمكن أن يكون بكليهما معا • وكلام الله واضح فى هذا الأمر اذ قال بولس الرسول بوحى من الله فى رسالة رومية ص ١١ : ٦ • فان كان بالنعمة فليس بعد بالأعمال • والا فليست النعمة بعد نعمة • وان كان بالأعمال فليس بعد نعمة • والا فالعمل لا يكون بعد عملا • •

ان عقيدة الخلاص بالنعمة تمجد عمل المسيح المخلص على الصليب ، وتجعل له قيمة لا حدود لها ، وكفاية كاملة للخلاص ، والا يكون المسيح قد مات بلا سبب ••• لكنه مات لأجل خطايانا ، وقام لأجل تبريرنا ، وعمله فى هذا الأمر كامل لا يحتاج الى مساعدة من البشر •

أما الأعمال الصالحة فلا بد منها ، اذ هى نتيجة تنبغ من الايمان الحى الحقيقي ، الا أنها لا تجلب فى حسد ذاتها الرحمة

والغفران • فالأعمال الصالحة تتبع الإيمان ، وهي دليل الخلاص لكنها ليست سببا له ، ذلك لأن الإيمان يوحد نفس الانسان مع المسيح ، ويغير مجرى البركات للتائبين •

فالتبرير مجاني ••• الخلاص مجاني ••• ليس لأنه بلا قيمة ، بل لأن قيمته أعلى من أن يدفعها الانسان ••• فدفعها المسيح بحياته إذ قدم ذاته غدية على الصليب •

يقول بولس الرسول في رسالته الى أهل غلاطيه « إذ نعلم أن الانسان لا يتبرر بأعمال الناموس بل بإيمان يسوع المسيح ، آمنا نحن أيضا بيسوع المسيح لتتبرر بإيمان يسوع لا بأعمال الناموس • لأنه بأعمال الناموس لا يتبرر جسد ما •

لست أبطل نعمة الله • لأنه ان كان بالناموس يز (يقصد تبريرا للناس) فالمسيح اذا مات بلا سبب » (غل : ٢ ، ١٦ ، ٢١) •

من هذا المنطلق ركزت الكنيسة الانجيلية فكرها واتجهت نحو العبادة الروحية ، واعتبرت علاقة الانسان الروحية بالله هي جوهر الحياة ولم تنسب البركات الروحية الى الطقوس والممارسات والفرائض الشكلية ، والعبادة الطقسية من أصوام وصلوات معدة سابقا وحفظ أيام وشهور وسنين • ولم تهتم بشكل العبادة قدر اهتمامها بجوهرها وروحها باعتبار ان الله روح والخين يسجدون له فبالروح والحق ينبغي ان يسجدوا •

ومن هذا المنطلق أيضا ، كان الفكر الانجيلي من ناحية الفرائض أو أسرار العهد الجديد • فبينما اعتقدت الكنائس التقليدية بأسرار سبعة هي : المعمودية ، والتثبيت ، والاعتراف ، والعشاء الرباني ، والرسم ، والزيجة ، والمسحة المقدسة ؛ ونسبت الى كل سر من هذه الأسرار فوائد وبركات الهية - فان الكنائس الانجيلية اعتقدت بفريضتين فقط هما المعمودية ، والعشاء الرباني •

ولم تنسب الكنيسة الانجيلية الخلاص الى اى من هاتين الفريضةتين . صحيح أن الكنائس الانجيلية اختلفت فيما بينها بشأن هاتين الفريضةتين فنادت بعض الكنائس بعمودية الكبار فقط ، على أساس ان العمودية تقم بعد الايمان والاعتراف بالمسيح ، ونادت بعض الكنائس بعمودية الأطفال ، باعتبارهم جزء من الأسرة المسيحية التي يعمل فيها روح الله القدوس ؛ ولكن جميع الكنائس الانجيلية لم تنسب الخلاص الى العمودية ، بل الى الايمان . وكثيرون ممن اعتمدوا طقسيا ، ولم يكن ايمانهم حقيقيا هلكوا مثل سيمون الساحر .

كذلك في غريضة العشاء الرباني ، فقد قالت بعض المذاهب الانجيلية بالرأى الزونجلى نسبة الى زوينجلى الذي قال بأن هذه المفريضة مجرد تنكار لموت المسيح دون أن تكون له فاعلية على الاطلاق ، بل هو مجرد شهادة لايمان المتناول ؛ وقالت بعض المذاهب الأخرى مثل الكنيسة الانجيلية المشيخية بأن العشاء الرباني له بركة خاصة إذ أن الروح القدس يوافق ممارسته ويوحد بين المؤمنين وبين المسيح الذي يحضر المفريضة روحيا ، ويتناولونه بالايمان قوة لحياتهم وبذلك تعتبر المفريضة من وسائل النعمة لكنها لا تعطى الخلاص لغير المؤمنين ؛ وقالت الكنيسة اللوثرية انه وان كان الخبز والخمر لا يتحولان في جوهرهما الى جسد المسيح ودمه ، الا ان المسيح حاضر في المفريضة جسديا علي منوال سرى . لكن المفريضة بلا فاعلية لغير المؤمنين لأن عدم الايمان يمنع فاعلية السر . . .

وكل هذه الآراء تختلف عن رأى الكنيسة التقليدية التي تعتقد بتحول الخبز والكأس الى جسد المسيح ودمه حقيقة وأن لهذا السر فاعلية في من يتناوله بصرف النظر عن ايمان المتناول منه . لكن الكنائس الانجيلية كلها ترى أن الخلاص يتم بالايمان ، والتقدم الى مائدة الرب يكون بعد الخلاص تعبيراً عن الشركة في جسد المسيح .

المبدأ الثالث

كهنوت جميع المؤمنين

وربما كان هذا المبدأ هو الفكرة الأساسية في الإصلاح الانجيلي ، والذي تدور حوله كثير من المبادئ الأخرى ، حسبما يرى كثيرون . فالإصلاح الانجيلي الغى فكرة الكهنوت الخاص والمتميز ، والذي بموجبه يقام نظام خاص أو طبقة خاصة من الناس ، يتوسطون في العبادة بين الله والناس كما كان الحال في النظام اليهودي ؛ وأعلن أن جميع المؤمنين بإمكانهم أن يتصلوا بالله رأساً دون وسيط .

ولو أننا درسنا الكتاب المقدس بعناية ، نعرفنا ان الكاهن هو انسان من البشر ، يكون وسيطاً بين الناس والله ، ليقدم الذبائح والقرايين والصلوات نيابة عن البشر ، ليصالحهم مع الله ، ويكفر عن خطاياهم ، ويتشفع فيهم قدام الله .

وهذه الوظيفة ليست موجودة في الديانة اليهودية فحسب ، بل نراها في عدد كبير من الديانات الوثنية . وهذا لا يعني صدق الديانات الوثنية ، وإنما هو تعبير عن احساس الناس في كل زمان ومكان بخطاياهم ضد الاله ، أيما كان تصورهم لهذا الاله ، وشعورهم بضرورة ارضائه والتكفير عن خطاياهم بتقديم ذبائح لقرضيته ، وذلك عن طريق وسطاء يقدمون هذه الذبائح والصلوات الى الله ، هم الكهنة .

وفي النظام اليهودي شريعة مفصلة للكهنة والذبائح ، اعطاها الله لموسى ، لتكون رمزا الى ذبيحة المسيح ، التي هي التكفير الحقيقي عن الخطايا . فالذبيحة هي تقديم نفس لله عن نفس أخرى مدنسة بالخطايا ؛ وطبيعي ان الذبائح الحيوانية لم تكن قادرة ان تكفر عن ذنب الانسان . فالله لم يكن يقبل هوت الحيوان نيابة عن الانسان ، ولكنه كان يقبل دم الذبيحة باعتبارها رمزا الى دم المسيح ، الذي كان تدييرا الهيا منذ الازل لخلاص الانسان . لذلك كان على الكاهن ان يقدم للذبائح مرارا وتكرارا كما ذكر كاتب الرسالة التي العبرانيين قائلا :

« وكل كاهن يقوم كل يوم يخدم ويقدم مرارا كثيرة تلك الذبائح عينها التي لا تستطيع البتة أن تنزع الخطية » .
(عب ١٠ : ١١)

وعندما جاء الرب يسوع الى أرضنا في صورة الناس ، جاء كاهنا على رتبة ملكي صادق وهي أعلى من رتبة هرون رئيس الكهنة حسب شريعة موسى ، وقدم نفسه لله مرة واحدة ذبيحة عن جميع الخطايا ، لأن ذبيحته في قيمتها كانت كافية للتكفير عن كل الخطايا لذلك قيل عنه :

« المسيح قدم نفسه مرة واحدة » (عب ٧ : ٢٧) « وبعد ما قدم عن الخطايا ذبيحة واحدة جلس الى الابد عن يمين الله ... لأنه بقربان واحد قد اكمل الى الابد القديسين » (عب ١٠ : ١٢ ، ١٤) . وعلى هذا الأساس لم تبق هناك حاجة الى كهنة متغيرين يطون محل بعضهم البعض ، لأن كهنوت المسيح لا يزول كما قيل « وأولئك قد صاروا كهنة كثيرين من أجل منعهم بالموت عن البقاء ، وأما هذا فمن أجل أنه يبقى الى الابد له كهنوت لا يزول » (عب ٧ : ٢٣ ، ٢٤)

الا أن الكنيسة بوجودها في هذا العالم ، وتعرضها لعوامل
الضعف الانساني ، ابتدأت تدريجيا أن تعطى لرجال الدين سلطانا
على حياة الناس ، حتى عندما جاءت القزون الوسطى كانت سلطة
الكنهنة رهيبة كما أسلفنا في الرسالة الأولى من هذه الأحاديث .
وقد جمعت الكنيسة من الكهنة أو رجال الكليروس وسطاء بين الله
والناس ، وأوكلت اليهم قبول الاعترافات من الناس ، وحلهم من
الخطية ، واعتقدت انهم في فريضة العشاء الرباني يقوهون بتكريس
وتقديم ذبيحة المسيح كل مرة يمارسون فيها هذه الفريضة ، وهكذا
اتخذت الكنيسة لنفسها ولرجالها سلطات واسعة وصلت الى حد
حرمان الانسان من السماء ومن الحياة الأبدية .

لأجل ذلك كان من بين المبادئ الهامة التي أعلنها مارتن
لوثر ، وعن بعده قادة الإصلاح الانجيلي ان من حق كل مؤمن أن
يتقدم الى الله مباشرة دون وسيط ، وان السيد المسيح جعل جميع
المؤمنين ملوكا وكهنة لله . وكل من يتوب توبة صادقة ويعترف الى
الله بخطايه ، ينال الغفران دون ما حاجة الى وساطة بشرية .
فكل انسان يمكنه ان ينال الرحمة من الله بواسطة الوسيط الوحيد
والشفيع الوحيد الرب يسوع المسيح . وأفضل طريق للاتصال بالله
هو الصلاة والاتحاد الشخصي بالله . وحقائق اندين مفتوحة أمام
الجميع ، وقد أعلن الله ارادته في الكتاب المقدس المفتوح أمام
الجميع . هذه العقيدة جعلت كل انسان يشعر بمسئوليته الخاصة
تجاه الله ، فبدأ الناس يسيرون في الطريق الجديدة التي جعلتهم
رجالا ونساءا أقوياء في الروح والأخلاق ، وحررتهم من السيطرة
الكنهوتية ، فخلصوا من الخوف الكليريكي ، واعتقوا من السلطان
الكنسي ، ولم يعد لسيف الحرمان المسلط فوق رقابهم قوة
تخيفهم

والتوقع أن تقسيم الناس الى اكليروس وعلمسانيين ليس تقسيما كتابيا وانما هو وليد فكر بشرى واستحسان انساني .

فكلمة « علماني » ترجمة لكلمة "lay" الانجليزية المأخوذة من الكلمة اليونانية (Iaikos) التي دخلت الى اللغات الغربية الحديثة في الصورة اللاتينية (Iaicus) وأصل الكلمة (Iaos) هي تعني « شعب الله » - لكن مفهوم كلمة (علماني) تغير بمرور الوقت حتى أصبحت تعنى الشخص غير المؤهل في ميدان ما ، فيقال أن فلانا علماني في الطب أي أنه غير حاصل على بكالوريوس الطب ؛ أو علماني في القانون أي غير حاصل على ليسانس الحقوق - وفي الكنيسة يشار الى غير المرتسمين بأنهم علمانيون أي ليست لهم صفة دينية بالمقارنة بالاكليروس .

وبذلك خرجت كلمة علماني عن معناها الاصلى ، الذي هو « شعب الله » .

وكلمة (اكليروس) مأخوذة من الكلمة اليونانية (Kleros) ومعناها أصلا مأخوذ من العهد القديم عندما يتحدث عن اللاويين والكهنة الذين صار الرب نصيبهم (عدد ١٨ : ٢٠) فمعنى كلمة (Kleros) = نصيب معين ، ويستخدم العهد الجديد الكلمة بهذا المعنى في مناسبات كثيرة (أعمال ١ : ١٧ ؛ أع ٨ : ٢١) وأخيانا تترجم « ميراث » (كر ١ : ١٢) وقد وصف بهذه الكلمة جماعة المؤمنين الذين تحت رعاية أحد المرعاة في تحذير بطرس للمرعاة أن يكونوا « لا كمن يسود على الأنصبة » (١ بط ٥ : ٣) وهكذا نرى ان معنى الكلمة يشير إلى جميع الرجال والنساء الذين يشتركون في هبات الله الروحية ، الذين لهم الرب نصيب - وبذلك نرى في العهد الجديد أن كلمة علماني (Iaos) وكلمة اكليروس (Kleros) تشير الى نفس الأشخاص لا الى طبقتين

مختلفتين ، فكل واحدة تشير الى افراد الكنيسة من زاوية معينة ،
الأولى تشير اليهم باعتبارهم شعب الله ؛ والثانية تشير اليهم
باعتبارهم وارثين للنداء والمجد وهبات الله • وبذلك لا يكون هناك
فارق بين المؤمنين - وقد قال مارتن لوثر ان كل شخص معمد باسم
المسيح هو في مقام القسيس أو الأسقف أو البابا ، ولا يختلف
شخص عن الآخر الا من ناحية الوظيفة فقط •

والرسامة في نظر الكنيسة الانجيلية ليس معناها تسليم
موهبة روحية معينة من شخص الي آخر ، وهو ما يعرف بسر
الكهنوت عند التقليديين ؛ ولكن الرسامة في نظر الكنيسة الانجيلية
هي اقرار الجماعة بمواهب معينة أعطيت من الله لشخص معين ،
وفرزه وتخصيصه لخدمة معينة في الكنيسة ، دون أن تكون لديه
سيادة على غيره في الجسد الواحد • فالجميع متساوون أمام الله •
والجميع في حاجة الى نعمته •••

المبدأ الرابع

حرية الضمير المسيحي

لقد حرمت كنيسة القرون الوسطى على الناس التفكير الحر ، حتى قيل انها في خلال الاربعين سنة التي سبقت الاصلاح الانجيلي احرقت نحو ١٣٠٠ شخصا بتهمة الهرطقة . وقد كانت الهرطقة في مفهوم الكنيسة هي ان يفكر الانسان لذغسه ، أو يتساءل متشككا في سلطة الكنيسة . كان للكنيسة وحدها حق اصدار الأحكام والمقرارات المتعلقة بالأمور الدينية ، وكان على المسيحي ان يقبلها بدون سؤال أو استفهام ، وهي وحدها تستطيع ان تخلصه من هذا الخطأ

لكن فجر الاصلاح أشرق على المفرد المسيحي بنور حرية الفكر والضمير ؛ وقد لاحظنا كيف ان لوثر عند محاكمته قال ان ضميره مقيد بكلمة الله ، وليس من الصواب أو الأمان أن يتصرف الانسان ضد ضميره

ومن أقوال لوثر الشهيرة عن قيمة الفرد وحرية ضميره المسيحي :

« وحدى ولدت الى هذا العالم ، ووحدى يجب أن اجاب الحياة ومسئولياتها ، ووحدى سأقف أمام الدين العظيم
لن يقف أحد مكانى ، ولا بينى وبين الله - لا أسقف ولا كاهن ولا مجمع كنسى ولا قانون كنسى ولا تقليد كنسى . بل سأقف أمام الله عاريا ، وعلى تقع المسؤولية تجاه الدين خالقي ، . . .

وتقولد عن حرية الضمير المسيحي ، قيم كثيرة في مختلف
نواحي الحياة ، سواء في الجانِب الفكري أو السياسي أو الاجتماعي
••• لذلك كانت الكنائس الانجيلية تدرب أبناءها على الحرية ،
ولا نقصد الفوضى ، بل الحرية اللتزمة المسؤلة الواعية ؛ وهكذا
تؤيد كل نظام يدعو الى هذه الحرية والى الديمقراطية • هذا
الاعتقاد بالديمقراطية نابع من اعتقاد الانجيليين بالله انذى هو
أب لجميع الخلائق البشرية ، الذى وهب لخلائقه حرية الارادة
والاختيار • وهكذا فالانجيلي بدوره يرغب أن يهب الحرية
للآخرين ، فلا يحرم غيره من حرية الرأى ، والقول والعقيدة •••

وقد كان لهذا المبدأ الأثر العميق في حياة الشعوب ••• فما
كانت البروتستانتية تظهر الى حيز الوجود حتى ابتدأت افكار
الناس تتجه الى الحرية والديمقراطية حتى أن أحد المفكرين
المشهورين ويدعى ماكس فيبر Max Weber قال « أن التطورات
العظيمة التى طرأت على تفكير العالم سياسيا واقتصاديا ، كانت
نتيجة لما قدمه لوثر وكلفن من فكر » •

وكتب المؤرخ الشهير والكاتب الانجليزي العظيم ماكولى عن
اثر البروتستانتية في القرون السادس عشر الى التاسع عشر
فقال :

« كانت أجمل وأخصب مقاطعات أوروبا وهى تحت حكم
الكنيسة قبل الاصلاح غارقة في الفقر ، والبرق السياسي ،
والسبات العقلى • وقد تحولت البلدان البروتستانتية التى
كانت يوما ما مثالا صارخا للقط والبربرية ، الى حدائق
غناء بفضل نشاط ومهارة أبناء الكنيسة المصلحة ، وصار من
بين سكانها النخبة الممتازة من الفلاسفة والشعراء وأبطال
السياسة » •

ولو اتيح لحملة مشعل الاصلاح اليوم ان يبعثوا من قبورهم ،
وان يعودوا الى دنيانا ، لسمعنا اصواتهم تدوى بالاحساس لكي
يتمم ابناءؤهم واحفادهم الاصلاحات التي بدأوها ، ليكون مصباح
الحرية الانسانية دائم التوهج والاشراق ، وهكذا يستتير الضمير
بنور المسيح ، وتنتطق الارادة المتحررة بالمسيح الى كل عمل خلاق ،
ليأخذ المسيح مكانته الأولى في الحياة ، لا بتشريعات الناموس
الجامدة ، بل باختيار الارادة الحرة السعيدة .

الرسالة الرابعة :

الاطلاع الديني ووحدة الكنيسة

تساءلنا في بداية هذه الأحاديث عما إذا كان الإصلاح الانجيلي قد أحدث شرخا في كنيسة المسيح وأفقدتها مظهر الوحدة الجميل باعتبارها « كنيسة واحدة جامعة رسولية » ، كما نعلم دائما عند تلاوة قانون الايمان . ولعل مثل هذا السؤال قد جال في خواطر الكثيرين ممن تزعمهم وتفتقهم الانقسامات الطائفية في كنيسة الله الواحدة ، فألقى ظللا على فكرتهم عن الإصلاح البروتستانتي ، وجعلهم يتوجهون اليه باللوم والعتاب .

وليس هناك من شك في أن رغبة قلب الله هي أن تكون كنيسته متحدة ، فهذه هي الطلبة التي رفعها الرب يسوع المسيح في صلاته الكهنوتية الى الآب عندما صلى قائلا :

« أيها الآب القدوس احفظهم في اسمك الذين اعطيتني ليكونوا واحدا كما نحن ولست أسأل من أجل هؤلاء فقط ، بل أيضا من أجل الذين يؤمنون بي بكلامهم ، ليكون الجميع واحدا كما أنك أنت أيها الآب في ، وأنا فيك ، ليكونوا هم أيضا واحدا فينا ، ليؤمن العالم أنك ارسلتني » .

(يو ١٧ : ١١ ، ٢٠ ، ٢١)

ان انقسام المسيحيين بعضهم على بعض عثرة أمام العالم ، وعقبة تقف في طريق ايمان العالم برسالة المسيح .

وبولس الرسول يكتب الى أهل أفسس داعيا اياهم الى الوحدة قائلا :

« فاطلب اليكم أنا الأسير في الرب أن تسلكوا كما يحق للدعوة التي دعيتم بها ، بكل تواضع ووراعة ، وبطول أناة ،

محتملين بعضكم بعضاً في المحبة ، مجتهدين أن تحفظوا
وحدانية الروح ، برباط السلام • جسّد واحد وروح واحد
كما دعيتم أيضاً في رجاء دعوتكم الواحد • رب واحد ، إيمان
واحد ، معمودية واحدة ، إله وأب واحد للكل ، الذي على
الكل ، وبالكل وفي كلكم ، (أفسس ٤ : ١ - ٦)

فهل كان الإصلاح الانجيلي هو العامل الأساسي في انقسام
الكنيسة وفقدانها هذه الموحدة ، وما هو نوع الموحدة المتشودة في
الكنيسة ، وكيف نسعى لتحقيقها ؟

هذه هي الأسئلة التي نحاول أن نفكر فيها الآن محاولين
الاجابة عليها • وان كانت الاجابات عليها قد يتداخل بعضها في
بعض ، لأن الموضوع مترابط ، انما نحاول لأجل ترتيب الفكر أن
ننقلها سؤالاً بعد الآخر •

اولاً : هل كان الإصلاح الانجيلي هو العامل الأساسي في انقسام
الكنيسة ؟

لا ننكر أبداً ان الإصلاح الانجيلي أو البروتستانتى الذى
ظهر في القرن السادس عشر كان حدثاً هاماً ترك بصماته على
الكنيسة المسيحية في كل العالم ؛ وأنشأ فكرياً متجدداً متميزاً في
الكنيسة منذ حدوثه ••• لكننا لا نستطيع أن ننسب اليه وحده
تهمة ايجاد شرح في كنيسة المسيح ، أو نعتبره وحده بأنه عاهل
الانقسام • فلم تكن الكنيسة المسيحية قبل عصر الإصلاح متحدة
بالصورة التي يتمناها كثيرون ، ومن يدرس تاريخ الكنيسة يلاحظ
أنه على مر العصور حدثت عدة انقسامات في الكنيسة ، بعضها
بسبب خلافات عقائدية وبعضها بسبب اتجاهات ومنافسات قومية
أو اقليمية - ولم يكن غريباً أن تواجه الكنيسة بين حين وآخر

اختلافات في الرأي أو انحرافات في التعليم ... كان ذلك أمرا طبيعيا ، وكان الطريق الطبيعي لعلاج تلك الاختلافات هو اجتماع قادة الكنيسة ومفكريها على هيئة مجمع كنسي للنظر في تلك الخلافات ، ومحاولة الوصول الى رأى موحد فيها .

ولعل أول مجمع كنسي هو ذلك المجمع الذي اجتمع فيه الرسل والمشايع في اورشليم لمناقشة موضوع قبول الأمم غير اليهود في الكنيسة ، والذي ورد ذكره في الأصحاح الخامس عشر من سفر أعمال الرسل ، والذي بموجبه سمحت الكنيسة بدخول الأميين الى عضويتها دون أن تلزمهم بالختان وحفظ الناموس اليهودي .

ومن المجمع الكنسية الشهيرة ، مجمع نيقية عام ٣٢٥ م الذي أفحم فيه أثناسيوس انرسولى شماس الاسكندرية المصرى خصمه أريوس الذى انكر لاهوت السيد المسيح ، وبموجب ذلك المجمع وقراراته وصلت لنا صيغة قاتون الايمان النيقوى .

وقد تعاقبت بعد ذلك المجمع الكنسية المسكونية مثل مجمع القسطنطينية سنة ٣٨١ ومجمع أفسس سنة ٤٣١ ، واستطاعت الكنيسة في هذه المجمع ان تحفظ وحدتها ونقاوة ايمانها .

الا انه فيما بعد وقعت هذه المجمع المسكونية تحت تأثير النفوذ السياسى ، فاختلطت الشئون العقائدية بالنافاسات والحزازات التى تارت بين الأمم والشعوب ، وبالنزاع على السلطة بين البطريركيات الكبرى مثل روما وانطاكية والقسطنطينية والاسكندرية ونتيجة لذلك حدث في الكنيسة انقسامان خطيران قبل الانقسام الذى حدث بسبب الاصلاح البروتستانتى في القرن السادس عشر .

١ - فالانقسام الأول حدث في القرن الخامس الميلادي عندما انفصلت كنيسة بطريركية الاسكندرية وبعض المؤيدين لها عن سائر الكنائس في العالم . على أثر مجمع خلقونونية سنة ٤٥١ م - ولا نريد ان ندخل في التفاصيل لأنها كثيرة ولكن الخلاصة ان خلافا عثمائديا استحكم بين بطريرك الاسكندرية ديوسقورس وبطيرك القسطنطينية فلاقيان . بسبب رأى أحد الرهبان اسمه افتيخوس - قال افتيخوس ان الرب يمسوح كانت له طبيعتان قبل التجسد ولكن بعد التجسد اتحدت الطبيعتان في طبيعة واحدة . وكان هذا الرأى أقرب الى رأى الرهبان المصريين ، وعكس ما كانت تعتقده باقى كنائس العالم التسابعة لبطريركيات انطاكية والقسطنطينية وروما . وقد عقدت عدة اجتماعات لبحث هذا الخلاف اللاهوتى ، كان البطاركة يدينون بعضهم بعضا فيها الى ان عقد مجمع خلقونونية سنة ٤٥١ م وحكم بحرمان بطريرك الاسكندرية وعزله ونفيه واعتباره هرطوقيا لأنه نادى بان للمسيح المسيح المتجسد طبيعة واحدة ، وسميت تلك النظرية بهرطقة الطبيعة الواحدة *Monophysite Heresy* لكن كنيسة الاسكندرية أصرت على رأيها وحكمت بحرمان باقى البطاركة في العالم ، وساندتها في ذلك بعض الكنائس في بعض الأقاليم المحدودة مثل الكنيسة الأرمنية في أرمينيا ، وكنيسة اليعاقبة في سوريا والعراق ، وكنيسة الحبشة . وانشقت هذه الكنائس عن باقى كنائس العالم وأطلقت على نفسها اسم الكنائس الأرثوذكسية وربطت نفسها واسمها بالأقاليم الذى توجد فيه وهكذا ظهرت الكنيسة النبطية الأرثوذكسية في مصر ، والأرمنية الأرثوذكسية والسريان الأرثوذكس والأحباش الأرثوذكس . هذه الكنائس اعتبرت نفسها وحدها أنها على حق ، ولم تقبل شيئا من قرارات

المجامع الكنسية ابتداء من مجمع خلقدونية سنة ٤٥١ م ، وانعزلت تماما عن باقى كنائس العالم منذ ذلك التاريخ .

٢ - والانقسام الثانى الكبير حدث فى القرن الحادى عشر وهو انفصال باقى كنائس الشرق المشهورة باسم الروم الأرثوذكس عن الكنيسة الجامعة - وكانت بوادر ذلك الانفصال تسرى فى الكنيسة بين كنائس الشرق وكنائس الغرب منذ القرن التاسع ، وذلك بسبب خلافات بين بطاركة الشرق فى القسطنطينية وأنطاكية وبيطيركية روما . كانوا جميعا يؤمنون بنفس العقيدة ، ولهم نفس الرتبة ، ولكن بطيريك روما كان فى عاصمة الدولة الرومانية ، واعتبر نفسه خليفة لبطرس الرسول الذى قيل عنه أنه زعيم الرسل ، وكان باقى البطاركة لا يعترفون بسيادة بطيريك روما عليهم - وزادت الخلافات حدة بعض الاختلافات الحضارية بين الشرق والغرب فقد كانت كنائس الغرب تستخدم اللغة اللاتينية فى القداس ، أما فى الشرق فكانت الكنائس تستخدم لغة أهل البلاد ؛ وكانت الكنيسة الغربية تمنع زواج القسوس بينما أباحت الكنائس الشرقية ذلك - وأخيرا تعطلت الكنائس ببعض الاختلافات العقائدية البسيطة مثل انبثاق الروح القدس هل هو من الآب فقط كما يقول الشرقيون ، أم من الآب والابن كما يقول الغربيون ؛ وهل يقدم الخبز والكأس للناس كما يفعل الشرقيون ، أم يقدم الخبز فقط مغموسا فى الخمر كما يفعل الغربيون . وفى عام ١٠٥٤ م تم الانقسام بين الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية ، وأصدر كل فريق حرمانا ضد رؤساء وأفراد الفريق الآخر . واطلقت الكنائس الشرقية على نفسها اسم الكنيسة الأرثوذكسية ومعنى الكلمة « أرثوذكس » هو مستقيم العقيدة ، وشملت بلاد اليونان ، والبلقان ،

وروسيا ، وآسيا الصغرى ، كما أن لها أتباعا في سوريا
ومصر يعرفون باسم الروم الأرثوذكس ، وهم يختلفون عن
الأقباط الأرثوذكس .

واطلقت الكنيسة الغربية على نفسها لقب الكنيسة
« الكاثوليكية » ومعنى اللفظ الجامعة باعتبار أنها هي الكنيسة
الجامعة دون غيرها .

ربما لا نشعر كثيرا بهذه الانقسامات في الكنائس التقليدية
في بلادنا لأن غالبية المسيحيين يتبعون الكنيسة القبطية
الأرثوذكسية ونتصور أن الاختلافات المتعددة موجودة في الكنائس
البروتستانتية وحدها ولكن الواقع أن بلادا أخرى تشعر بهذه
الاختلافات بصورة أوضح .

وحتى في بلادنا يمكننا أن نجد بطيركة للأقباط الأرثوذكس ؛
وأخرى للروم الأرثوذكس ؛ وأخرى للكاثوليك ؛ علاوة على فروع
أخرى للكاثوليك لها أصل أجنبي مثل المارونيين وغيرهم .

وبالرغم من أن الفوارق في العقيدة بين هذه الكنائس أقل
كثيرا من الفوارق بينها وبين الكنائس البروتستانتية ، لكن
محاولات رأب الصدع وعلاج الانقسام بينها فشلت حتى العصر
الحاضر ؛ وإن كانت هناك محاولات تجرى بينها من حين إلى آخر
للتفاهم واللقاء معا .

نستطيع أن نستخلص من هذه الحقائق أن الإصلاح
البروتستانتى ليس وحده عامل الانقسام في الكنيسة ؛ والواقع
أننا نستطيع أن نلمس من دراستنا لتاريخ الإصلاح أنه جاء نتيجة
اضطرارية لتعسف قيادات الكنيسة وعدم مرونتها وعدم تقبلها
لمحاولات تجديد حياتها من الداخل ، والإصرار على السيادة .

وقد تكررت هذه الظاهرة مرارا في تاريخ نشأة المذهب الانجيلي في بلاد كثيرة في العالم ومنها بلادنا المصرية ؛ فان كثيرين ممن حملوا رسالة الانجيل الى بلادنا في القرن التاسع عشر ، ومنهم ارسلاليات من المانيا وانجلترا وامريكا ، لم يحاولوا انشاء كنيسة انجيلية مستقلة ، بل ارادوا تعليم الكنيسة القائمة الموجودة في مصر ، لكنهم وجدوا مقاومة شديدة ، وجمودا أشد من قيادات تلك الكنيسة ، فاضطر بعضهم الى الترحيل ؛ والبعض الآخر وجد نفسه مضطرا لتكوين نواة كنيسة انجيلية ، تضم الذين وجدوا استنارة معينة من الانجيل ، وأرادوا ان يتعبسوا بالأسلوب الذي يرضى ضمائرهم ويبرح نفوسهم .

ثانيا : ما هو نوع الوحدة المنشودة في الكنيسة ؟

هذا ينقلنا الى سؤال آخر يتعلق بنوع الوحدة المنشودة في الكنيسة . هل المقصود بالوحدة هو التماثل التام ، والمطابقة الكاملة في الفكر ومبادئه ، والنظام وتفصيلاته ؟ هل المقصود هو ان يتدرج خدام الكنيسة وتسوسها وأساقفتها تحت نظام هرمي ، في قمته رئاسة واحدة أيا كان اسمها .

ان بعض البسطاء يتصورون ذلك فعلا ؛ بل ان البعض يظنون ان السيد المسيح عندما قال في يوحنا ١٠ : ١٦ « ولي خراف اخر ليست من هذه الحظيرة ينبغي أن أتى بتلك أيضا فتسمع صوتي وتكون رعية واحدة وراع واحد » يظنون ان المقصود هو رئاسة بشرية واحدة لكنيسة موحدة .. بينما الواضح ان السيد المسيح كان يقصد الخراف التي كانت في حظيرة الأعم والتي اراد أن يأتي بها لتكون في الكنيسة المسيحية التي هي رعية واحدة له هو أى شخص المسيح ، الراعي الواحد لكنيسته .

ان الوحدة المسيحية ليست وحدة الرئاسة المنظورة ، ولكنها
وحدة الخضوع لرأس الكنيسة واستقفاها العظيم الرب يسوع
المسيح ؛ والتفتح لعمل روحه ، والانتقاد لهذا الروح ولارشاده ،
انها وحدة الهدف ، ووحدة الروح .

ان هذه الوحدة لا تعني التماثل ، ولا الاحتواء ، ولكنها شبيهة
باتحاد أيقانيم اللاهوت ، كما طلب السيد المسيح في صلواته
الكهنوتية ٠٠٠ وقد تتنوع الوظائف في جوهر اللاهوت ، فالآب هو
الخالق المبدع حافظ وضابط والكل ، والابن هو الفادى الكلمة
التجسد ، والروح القدس هو الاله الحال في البشر مقدسهم
ومرشدهم ومعلمهم ٠٠٠ والأيقانيم الثلاثة متحدة معا في جوهر
اللاهوت . والمحبة سائدة بينها ، فالآب يحب الابن ، والابن يحب
الآب ويقبل وصيته ويتمم ارادته ، وفي تجسده علي الأرض يفعل
مشيئته دون أن يكون هناك تدرج في الرتبة والمقام ، بل ان الأيقانيم
الثلاثة متساوون في القدرة والمجد كما نقرأ في اجابة السؤال السادس
من أصول الايمان .

ان وحدة الكنيسة لا تعني أن الكنيسة يجب أن تخلو من
التنوع ، والاختلاف في بعض التفاصيل أو أساليب العبادة ٠٠٠
فان الكنيسة وهي علي الأرض تسعى لتعترف مشيئة الله ، وتجاهد
لكي تطيع ارشاد روحه كما يمكنها أن تفهمه ، ومن الطبيعي أن
أفرادها قد يختلفون قليلا أو كثيرا في فهم مطالب الله ، وعليهم
بالتواضع والمعانة أن يجاهدوا باخلاص للوصول الى فهم أعمق ،
وإدراك أوسع ٠٠٠ علي أن هذه الاختلافات لا ينبغي أن تهدد المحبة
بين أفرادها ومذاهبها ، ولا ينبغي أن تشيع الخصام بينها ، وعلي
هذا الأساس كان طلب الرسول الى أهل أفسس أن يسلكوا كما
يحق للدعوة التي دعاهم الله بها ٠٠٠

« بكل تواضع ووداعة وبطول اناة محتملين بعضكم بعضا
في المحبة ، مجتهدين ان تحفظوا وحدانية الروح برباط
السلام ،
(أف ٤)

انها الوحدة في تنوع ٠٠٠ هذا التنوع يحمل في طياته اختلاف
مواهب الروح القدس المعطاة للكنيسة ولاعضائها ٠٠٠ وما لم نفهم
الكنيسة بكل قياداتها حقيقة هذه الوحدة في تنوع ، فسوف نظل
تسمى للتشابه والتماثل في النظام ، فنضل الطريق الى الوحدة
الحقيقية ، وتبحث عن وحدة شكلية ظاهرية تحمل بين طياتها بذور
انقسام أشد وأعمق ، بين محاولات السيطرة والاحتواء ، ومشاعر
التمرد والثورة ٠٠٠

ان وحدة الكنيسة حقيقة قائمة ، اننا لا نحاول نحن ان
نوجدها بأنفسنا ولا بمجادلاتنا البشرية ٠٠٠ لقد صلى المسيح لأجل
هذه الوحدة ، وروح المسيح هو الذى يصنع الوحدة في الكنيسة .
وما على أفراد الكنيسة وقياداتها الا الخضوع لعمل روح المسيح ،
والتجرد من الذات ، لكي يسرى روح المسيح بقوة وحيوية في
الكنيسة ، فيزيد احساسها بالوحدة ٠٠٠

ان وحدة الكنيسة قائمة فعلا ، لأنها تعبد ربا واحدا ؛ والذى
فداها واشتراها بدمه واحد ، ورجاؤها واحد ، وانتظارها واحد ٠٠٠
وما علينا نحن الا أن نبتعد عما يشوه صورة الوحدة في نظر العالم ،
من مشاعر الأنانية والكبرياء والتعصب والجهود ٠٠٠

ثالثا : كيف نسعى لتحقيق الوحدة المسيحية :

وأجد نفسى قد تطرقت تلقائيا الى السؤال الثالث وهو كيف
نسعى لتحقيق الوحدة ، وأرائى قد بدأت الإجابة فعلا ، فاننا

لا نستطيع نحن أن نصنع الوحدة بأنفسنا ، لأنها نعمة من الله ،
وعبة من المسيح استجابة لصلاته الى الآب - وهي صلاة مسموعة
ومستجابة ولا شك - ان كل ما نستطيع أن نعمله هو أن نتفتح
على بعضنا البعض كطوائف مسيحية ، ونتقبل بعضنا بعضا في
تواضع ومحبة وتقدير متبادل مجتهدين بإخلاص أن نحفظ وحدانية
الروح برباط السلام • افنا نسعى معا ، ونلتقى معا ، لنعرف كيف
يقودنا الله معا الى الطريق الذي يريده هو • فنحن لا نستطيع أن
نضع تخطيطا لمشكل او نظام معين نتحد فيه أو نتجه نحوه ،
ولا نستطيع أن نضع برنامجا للغد أو للأعوام القادمة في هذا المجال
بالمذات ، لأن المستقبل ليس لنا ولكنه لله . وعلينا نحن أن نكون
أمناء في الحاضر ، وممثلين من روح المسيح في الحاضر ، لكي نعرف
الى ماذا يقودنا الله في المستقبل ••• نتعزف اليوم في روح المسيح ،
بالمعطيات والقدرات والموهب التي أعطانا الله اياها . ولا نعرف
ماذا سنعمل في الغد ••• نتعاون معا فيما يمكن أن نتعاون فيه .
ندرب نفوسنا على التمييز بين المعاني التي يمكن أن تختلط معا
فتفسد شركتنا ، وتعكز صفو علاقتنا ، فنميز بين التعصب
المقوت ، والتمسك بالجدأ ؛ ونميز بين الولاء لأفراد أو لمسلمات
وبين الولاء للمسيح ؛ ونعرف حدودنا فيما ينبغي أن نعمله لنعلن
ما نعتقد في محبة واحترام ، دون أن نسيء الى غيرنا ؛ معتزين
بحريتنا ومحترمين حرية غيرنا - هذه المعاناة ليكون لنا ولأعضاء
كنائسنا هذا الروح تحتاج الى تدريب ، وهذه مسئولية قيادات
الكنيسة في كل طائفة •••

وان من بشائر عمل روح الله في الكنيسة وفي التاريخ لتحقيق
هذه الوحدة ، ما نراه قد حدث ويحدث في الكنيسة الكاثوليكية من
ناحية ، وفي الكنائس البروتستانتية وبعض الكنائس الأرثوذكسية
من ناحية أخرى •••

فمنذ أن دعا البابا يوحنا الثالث والعشرين الى مجمع الفاتيكان الثانى ، والكنيسة الكاثوليكية فى تفتح عجيب على الكنائس الأخرى بروح لم يسبق لها مثيل ، تدل على أن الحافز الى هذا التقارب والتفتح ليس رغبة انسانية بقدر ما هو ارشاد الهى - وقد تجلت هذه الروح فى كتابات كثيرين من اللاهوتيين الكاثوليك الذين أثروا الفكر المسيحى بمبادئ كتابية اصلاحية ، فهناك من نادى بكهنوت جميع المؤمنين ، وهناك من قبلوا الاشتراك مع كنائس أخرى على مائدة الرب ، وهكذا بدأ عصر جديد ، فى لقاءات مثمرة ، وتقارب جميل ...

هذا من جانب ، ومن جانب آخر ، شهد القرن العشرين حركات وحدوية فى الكنائس البروتستانتية وبعض الكنائس الأرثوذكسية ، لو أردنا أن نشرحها لما اتسع المقال لها لأنها متسعة للغاية . فبعد أن كان المسيحيون المهتمون بنشر الدعوة المسيحية يعتقدون مجامع ومؤتمرات مرسلية ، شعروا بأن واجبهم الأول هو التعاون والشركة معا كتعبير عن روح المسيح الذى فيهم .

وتكون مجلس الكنائس العالمى كتعبير عن الحركة المسكونية التى تضم الكنائس معاً .

كان ذلك المجلس هو فزوة الحركات التى قامت للتقارب المسيحى والعمل المشترك .

وقد جاءت المبادرة بإنشاء مجلس الكنائس العالمى من الكنائس الانجيلية فى أوروبا وأمريكا وهى اغلبيية بين المسيحيين فى تلك القارات ، وذلك لأن الفكر البروتستانتى من طبيعته أن يسعى نحو التقارب والتفاهم وكان أول اجتماع عام لهذا المجلس فى امستردام عام ١٩٤٨ .

ومجلس الكنائس العالمي يعنى عن ذاته بأنه شركة أخوية تتألف من الكنائس التي تقبل الرب يسوع المسيح ربا ومخلصا فليس هو كنيسة عليا تسيطر على الآخرين ، ولا هو الكنيسة الواحدة ، بل هو مجلس استشارى يدعو المسيحيين لكي يصلوا معا ويعملوا معا متعاونين . وهو منبر للأبحاث والمناقشات وابداء وجهات النظر وتقديم التوصيات للكنائس .

ويمكن تلخيص الأهداف التي سعى اليها المجمع في العبارات التالية المتنبسة من قراراته في أول اجتماع له سنة ١٩٤٨ اذ تقول :

« نحن لا نقدر أن نتحد لأن بيننا غوارق عميقة في العقيدة ، على انذا لا نقدر أن نعيش منفصلين بعضنا عن بعض ، لأننا نؤمن باله واحد ، ونريد أن نسمى ونجاهد لتحقيق فكرة الكنيسة الواحدة المهدسة التي هي جسد المسيح . وان كنا لسنا مستعدين بعد لأن نبدأ شركة كاملة بعضنا مع بعض ، ونعمل كجسد واحد غير منقسم ، لكننا مستعدون الآن لنطرح عنا كل أساليب العزلة والانفصال ، وان نبدأ التباحث معا بالزوح المسيحي ، ونعمل بالاشتراك معا كلما وجدنا غرضا مشتركا » .

وقد كان شعار مؤتمر أمستردام العبارة التي ردها ولا يزال يرن صداها في العالم المسيحي « قد عزمنا أن نجتمع معا » .

وقد توالفت فيما بعد اجتماعات هذا المجلس فتجتمع جمعياته العامة مرة كل سبع سنوات ، ويحضرها الآف المنوبين من مختلف الكنائس البروتستانتية والأرثوذكسية في العالم كما تعقد لجانه المختلفة جلسات متعددة والجدير بالذكر أن الكنيسة القبطية

الأرثوذكسية في مصر من أعضاء هذا المجلس منذ السنوات الأولى لتأسيسه ويرجع الفضل في ذلك الى طيب الذكر الراحل الأديبا صموئيل الذي درس اللاهوت في جامعة بروكستون اللاهوتية الانجيلية .

والمواقع اننا لا نستطيع ان ننكر فضل هذا الرجل العملاق الذي كان أول من فتح نافذة أمام الكنيسة القبطية الأرثوذكسية في مصر لتلتقي مع كنائس أخرى في العالم منذ القرن الخامس الميلادي ، كذلك فان سنودس النيل الانجيلي بمصر من أعضاء هذا المجلس - كما يحضر المجلس بعض المراقبين من الكنيسة الكاثوليكية .

وفي الشرق الأوسط كان هناك مجلس مسيحي مسكوني يضم الكنائس البروتستانتية في المنطقة وكنيسة واحدة أرثوذكسية للسريان الأرثوذكس في لبنان ؛ واهتم المجلس بدخول كل الكنائس الى شركته ، وفي خلال الأعوام من ١٩٧٠ الى ١٩٧٤ دارت لقاءات ومفاوضات مكثفة ومطولة لكي تنضم اليه الكنائس الأرثوذكسية بنوعها الخلقونية وغير الخلقونية اليه ، وأخيرا تم الاتفاق ووضعت لائحة خاصة للعضوية بموجبها انضمت جميع كنائس المنطقة الأرثوذكسية والانجيلية والأسقفية الى هذا المجلس ، وصارت جمعيته العمومية تضم ٦٦ ممثلا للكنائس منهم ٤٤ ممثلا للكنائس الأرثوذكسية بأنواعها و ٢٢ ممثلا لجميعة الكنائس البروتستانتية في المنطقة .

(ومما يسعد كاتب هذه السطور انه كان أحد رؤساء هذا المجلس طوال فترة المفاوضات التي انتهت بانضمام الكنائس الأرثوذكسية الى المجلس واجتماع الجمعية العامة للمجلس في قبرص سنة ١٩٧٤) .

واننا ندعو الله أن يعطى لجميع الكنائس روح التفتح والرونة والتقبل والتواضع ، فبهذا يمكننا أن نكون بحق خاضعين لروح الله لكي يوحد غلوبنا معا ، وفي نفس الوقت ندعو قادة الكنائس لزيد من اللقاءات اللاهوتية معا لمناقشة ما تصدره المجالس المسكونية من دراسات تهدف نحو فهم أعمق لمبادئ الشركة والوحدة المسيحية ، وما أكثر الدراسات التي أصدرها مجلس الكنائس العالمي في مختلف الموضوعات التي من شأنها تقريب فكر الكنائس بعضها نحو البعض ؛ ومن بينها دراسة عن المبادئ الواجب تطبيقها بين الكنائس لكي لا تمارس تدخل بعض أفراد غيرها في مذهبها (Proselytism) ، وفي نفس الوقت تعطى الحرية لكل شخص أن يعبر عن فكره وأن يختار المذهب الذي يتفق مع اقتناعه الشخصي ؛ وكذلك الدراسات والتوصيات الخاصة بعدم إعادة العمودية لمن سبق ان اعتمدوا في كنائس تعتقد بالثالوث الأقدس ، والاعتراف المتبادل بالزواج الذي تجريه الكنائس على اختلاف عقيدتها ...

ان هذه الدراسات لا يفرضها أحد على أية كنيسة ، لكنها مجال للفكر والمناقشة المخلصة الجادة ، في طريق الوحدة المسيحية .

كذلك ندعو قادة الكنائس المختلفة ، ان يتقبلوا بروح التفتح والتسامح والأبوة الاجتهادات الفكرية التي يصل اليها بعض أبناء كنائسهم ، فلا يشهروا ضدهم سيف الحرمات والارهاب الفكرى حتى يمكن أن يحتفظوا بعلاقتهم بالكنائس ويظلوا تحت رعايتها وارشادها ، حتى ولو اختلفوا قليلا في الفكر عن الآراء الرسمية للكنيسة .

واننا ندعو جميع الكنائس الا تنظر الى جوانب القصور والاختلاف في غيرها ، بقدر ما تنظر الى الجوانب المشرقة والتي توحد الكنائس بعضها مع بعض - وهذا لا يتم الا اذا اقتربت الكنائس بعضها من بعض في روح المودة المخلصة والتعاون الثمر .

وقد فكر أحد الكتاب مرة في الكنيسة المثالية التي يرجو أن تتحقق في المستقبل فوجد في كل كنيسة امتيازاً وجمالاً فتمنى أن تكون في كنيسة المستقبل العناصر التالية من كل كنيسة ومذهب
تمنى أن يكون فيها تنظيم الكنيسة الأسقفية ووقار عبادتها وتعلق الكنيسة الانجيلية المشيخية بالكتاب المقدس ونقاوة تعاليمها
وديمقراطية الكنيسة الاستقلالية واستقلالها
وبساطة الكنيسة المعمدانية وحريتها
وحرارة ايمان الكنيسة اللوثرية وتوازنها
وروح الهدوء والتأمل الموجودة في عبادة كنيسة الاخوة ومحبة السلام فيها
وبطولة الكنيسة الأرمنية وشهادتها وغيبتها وحيويتها
وجهاد كنيسة التلاميذ ونشاط كرازتها
وروح التبشير الموجود في الكنائس الرسولية وسرعة انتشارها
وسخاء كنائس الله وحيويتها
وثبات الكنيسة الارثوذكسية ومحافظةها على ايمانها وتقاليدها
ونظام الكنيسة الكاثوليكية وروح الطاعة بين اعضائها .

ان الكنائس المسيحية بمذاهبها المتسوعة باقة جميلة من الورد والأزهار ، متعددة الاشكال والألوان ، لكنها باتحادها معا تملأ العالم من عطر المسيح ، وتزين الحياة بجمال المسيح

ملحق عن

نخلة الكنيسة المصرية

أولا :

القديس مرقس الانجيلي والكنيسة التي أسسها بهصر

(*) نشر للمؤلف في ملحق مجلة الهدى في سلسلة « الاغصان »
عدد سبتمبر ١٩٧٩ .

٨١

(م ٦ - أضواء على الاصلاح)

قديم :

إذا كان الفكر المسيحي في العالم يهتم بدراسة حياة القديس مرقس الانجيلي باعتباره كاتب انجيل مرقس ، ثانيا الأناجيل ، وأقدمها في تاريخ كتابته ، فبالأولى جدا يجب علينا نحن المصريين المسيحيين أن يزداد اعتزازنا واهتمامنا بدراسة حياة هذا القديس، لأنه هو المعروف بلقب : « كاروز الديار المصرية » ، والشائع أنه من أوائل من حملوا رسالة الانجيل الى بلادنا .

والقصص والروايات التي تروى عن حياة هذا القديس العظيم كثيرة ومتباينة حسب مصادرنا المختلفة ، فمنها ما ورد في العهد الجديد ، وهذه أصدق الروايات بلا منازع ؛ ومنها ما ورد في أقوال الآباء المبكرين في تاريخ الكنيسة ، ومنها ما هو متأخر نسبيا ٠٠٠ وهذه ينبغي تمحيصها ومقارنتها بعضها ببعض وبأحداث التاريخ السابق تحقيقها بواسطة المؤرخين الموثوق بهم ، وذلك التزاما بالأمانة العلمية ، والحراسة الجادة ، وهذا هو التكريم الحقيقي للآباء القديسين ، أن نتوخى الأمانة والدقة في دراسة تاريخهم المقدس .

فمن هو القديس مرقس ؟ وماذا يذكر الكتاب المقدس عنه ؟ وماذا تذكر التقاليد عنه ؟ وما هي ملامح الكنيسة التي أسسها في بلادنا المصرية ؟ وكيف نعبر عن اعتزازنا الحقيقي وتقديرنا انصافا لشخصية هذا الكاروز العظيم ؟

كل هذه أسئلة نرجو بنعمة الله أن نجيب عليها بإيجاز في هذا المقال .

من هو القديس مرقس ؟

اسمه الأصلي « يوحنا » وهو اسم يهودى ، معناه « الله يتحنن » ، أما « مرقس » فهو لقبه أو اسمه الرومانى ، لذلك فإن سفر أعمال أنرسل يطلق عليه اسم « يوحنا الملقب مرقس » (أعمال ١٢ : ١٢ ، ٢٥) وفى بعض الأحيان يسمى باسم « يوحنا » فقط (أعمال ١٣ : ٥ ، ١٣) ولا نعرف لماذا اتخذ لقب « مرقس » ثم اشتهر به وحده دون اسم « يوحنا » فيما بعد - لكن المرجح أن ذلك حدث بعد أن كان يخدم مع برنابا فى المدينة الاممية العظيمة أنطاكية ، وربما تمسك بهذا الاسم تأكيدا للجنسية الرومانية التى كان حاصلا عليها بالميلاد وكانت تعطيه امتيازات متعددة فى الدولة الرومانية ، شأنه شأن تساول الطرسوسى الذى اتخذ اسم بولس .

ونحن لا نجد أية اشارة الى يوحنا مرقس فى الأناجيل الأربعة ، وأول اشارة اليه جاءت فى سفر الأعمال ، الأمر الذى حدا ببعض بأن يذكر أن مرقس رأى السيد المسيح شخصا - فقد جاء فى أقوال بابيلاس Papias وهو من مؤرخى المسيحية فى القرن الثانى الميلادى (سنة ١٢٥ م) ومن أشهر من اهتموا بجمع التقاليد القديمة عن الأبياء ، أنه قال وهو يتحدث عن انجيل مرقس ، المقول التالى :

« كان مرقس مفسرا أو مترجما لفكر بطرس الرسول ، وقد كتب بدقة كل ما سمعه من بطرس عما قاله المسيح أو فعله ، ولكن بدون ترتيب ، ذلك لأن مرقس لم يكن ممن سمعوا الرب

شخصيا أو ممن اتبعوه شخصا ، لكنه اتبع روايات بطرس عن المسيح ، واعتمد على الذاكرة فيما رواه ، لأنه جاء الى المسيحية « في وقت متأخر نسبيا » .

(دوسابويوس HE جزء ٣ صفحة ٣٩ - كذلك دائرة المعارف الكتابية الدولية(*) ISBE تحت Gospel of Mark كذلك شرح وليم باركلي عن رسالة بطرس الأولى (الترجمة العربية) ص ٤٢٠ ، ٤٢١) .

على أن كثيرين من آباء الكنيسة لم يتعرضوا لهذا الأمر سواء بالنفي أو الاثبات ، وكل ما اتفقوا عليه هو أن الانجيل الذي كتبه مرقس مستمد من المعلومات التي استقاها مرقس من بطرس الرسول الذي كان مرقس ملازما له بعض الوقت . وفي هذا شبه تأكيد أن مرقس لم يكن من أتباع السيد المسيح أثناء حياته على الأرض - وممن ذكروا ذلك ايرانيوس (آسيا الصغرى عام ١٧٥ م) واكليمندس الاسكندري (عام ٢٠٠ م) وترتليانوس (شمال أفريقيا عام ٢٠٧ م) وكثيرون غيرهم .

ومن المعلوم أن مرقس لم يكن واحدا من الاثنى عشر تلميذا ، لكن البعض يظن أنه كان واحدا من السبعين تلميذا الذين أرسلهم المسيح . وقد أشير الى ذلك في كتاب « الايمان القويم » لأوريجانوس ، وكتاب ابيفانوس أسقف قبرص في القرن الرابع . والبعض يرجع أن العلية التي أكل فيها السيد المسيح الفصح مع تلاميذه كانت في بيت مرقس ، وأنها نفس العلية التي اجتمع فيها التلاميذ بعد القيامة ، وفيها حل الروح القدس على التلاميذ . لكن

(*) International Standered Bible Encyclopedia.

هذه الافتراضات تفتقر الى الدلائل فلا توجد في كتابات الآباء الأوائل اشارات الى ذلك على الاطلاق . ولو كان هذا أمرا محققا لذكره على الأقل اكليمندس الاسكندري (عام ٢٠٠ م) خاصة وعلاوة القديس مرقس بكنيسة الاسكندرية شائعة في التقاليد الكنسية .

وأول اشارة في العهد الجديد الى يوحنا مرقس نجدها في سفر أعمال الرسل الأصحاح الثاني عشر ، فقد خرج بطرس من السجن وجاء « الى بيت مريم أم يوحنا الملقب مرقس حيث كان كثيرون مجتمعين وهم يصلون » (أع ١٢ : ١٢) والتاريخ المرجح لهذه الحادثة هو عام ٤٤ م ومن هذا نستطيع أن نبين أن مرقس وأمه اعتنقا المسيحية قبل ذلك . وان هذه الأسرة كان لها شأن بين جماعة المسيحيين ، فقد كان المسيحيون يجتمعون في بيت الأسرة للصلاة . ويبدو من وصف المنزل في سفر الأعمال ، ومن وجود جارية يونانية في المنزل ، أن الأسرة كانت على شيء من الثراء . ولا يذكر الكتاب شيئا عن الأب ويبدو أنه كان متوقفا من وقت هذه الأحداث .

يقول بعض المؤرخين أن مرقس ولد في مدينة القيروان في شمال أفريقيا في أسرة يهودية غنية . وان بعض القبائل الهمجية أغارت على هذه المدينة لنتهب أموال الناس فرحل أبواه الى اورشليم . (قصة الكنيسة القبطية لايريس المصري جزء ١ صفحة ٢٠) بينما يقول آخرون أن هذه الأسرة كانت تسكن قبرص لأن مرقس كان ابن أخت برنابا (كولوسي ٤ : ١٠) وكان برنابا يهوديا قبرصي الجنس (أعمال ٤ : ٣٦) وهذا يفسر اهتمامه بالسفر الى قبرص عدة مرات ، ومن المرجح أن تكون أخته مريم كانت مقيمة في قبرص أيضا (ISBE تحت عنوان Mark) .

وعلى كل حال فقد كان شأن العائلات اليهودية المتعبدة أنها بعد أن تحصل على ثروة مادية من العمل والتجارة في مختلف البلاد أن تعود الى اورشليم باعتبارها مركزا للأمة اليهودية والايمان اليهودى .

- ٢ -

حياة القديس مرقس وخدمته كما يرويها العهد الجديد

لا نستطيع ان نعرف باليقين الكيفية التي صار بها مرقس مسيحيا ، وهل كان ذلك منذ بدء تاسيس الكنيسة في اورشليم بعد القيامة مباشرة ، أم في فترة تلى ذلك ، على أنه من المؤكد أن أسرة مرقس آمنت بالانجيل قبل عام ٤٤ م كما سبق الذكر ، ومن اشارة بطرس الرسول في ختام رسالته الأولى عن مرقس أنه ابن له (١ بط ٥ : ١٣) نفهم أن بطرس الرسول كان له دور هام في ايمان مرقس بالمسيح - ومما لا شك فيه أنه كانت لمرقس الفرصة أن يلتقى بالرسول في مختلف المناسبات ، بدليل أنه وقع عليه الاختيار أن يرافق برنابا وشاول في خدمتهما في انطاكية (أع ١٢ : ٢٥) وفي قبرص حيث يقول كاتب سفر الأعمال « وكان معهما يوحنا خادما لهما » (أعمال ١٣ : ٥) ويختلف الشراح في نوع الخدمة التي كان مرقس يقوم بها ، فقد قال البعض انها كانت خدمة المعاونة في الاداريات ، وقال آخرون أنه كان يشترك مع بولس وبرنابا في خدمة الوعظ والتعليم ، وقال آخرون أنه كان يسند اليه تعليم حثيثي الايمان في العقيدة المسيحية .

ويذكر الكتاب أن يوحنا مرقس افترق عن برنابا وشاول ورجع إلى اورشليم (أ ع ١٣ : ١٣) وقد تسأل كثيرون عن سر هذا الافتراق ، ولم ينسب أحد لأسباب شخصية كالتردد أو الشعور بالمغربة ، أو رعاية الأم أو عدم الرغبة في المخاطرة ؛ لكن المرجح أن يوحنا مرقس لم يكن مستعدا باعتباره يهوديا متمسكا ، أن يرى الانجيل المسيحي يقدم إلى الأمم على أساس الإيمان فقط دون مراعاة الطقوس اليهودية ، ولم يكن هذا موقفه وحده بل كان موقف عدد كبير من المسيحيين القادمين من اليهودية - وربما يفسر هذا الأمر حذف اللقب الروماني « مرقس » من اسمه عند الإشارة إلى مفارقتة لبرنابا وشاول ، كما يفسر هذا أيضا معارضة بولس الشديدة في قبرله عودته للخدمة معهما عندما اقترح برنابا ذلك في الرحلة الثانية بعد سنتين . ذلك لأن بولس كان متشديدا جدا في ضرورة فتح باب قبول الأمم للإنجيل دون إلزامهم بالطقوس اليهودية بل بالإيمان فقط . ولوصف هذا الخلاف نذكر ما جاء عنه في سفر الأعمال « فأشار برنابا أن يأخذا معهما أيضا يوحنا الذي يدعى مرقس ، أما بولس فكان يستحسن أن الذي فارقهما هن بمفيلية ولم يذهب معهما للعمل لا يأخذانه معهما . فحصل بينهما مشاجرة حتى فارق أحدهما الآخر . وبرنابا أخذ مرقس وسافر في البحر إلى قبرص وأما بولس فاختار سيلا » (أعمال ١٥ : ٣٧ - ٤٠) ولعلنا نلاحظ هنا أن لوقا كاتب سفر الأعمال يذكر اسم « مرقس » الروماني في هذا الموقف دليلا على أن مرقس قد اقتنع بحقيقة دخول الأمم مباشرة إلى المسيحية وكان مستعدا أن يرافق بولس .

وتمضى فترة إحدى عشرة سنة لا نسمع فيها شيئا عن مرقس إلى أن نسمع أنه كان مع بولس في روما (كولوسي ٤ : ١٠ ؛ فلبيوم ٢٤) ومن هذا نعلم أن العلاقات عادت طبيعية بين بولس ومرقس ، ونستطيع أن نلمس اعتزاز الرسول بولس بشخصية

مرقس وخدمته فيما كتب عنه ، ونستطيع أن نرى رحلة محتملة سيقوم بها مرقس الى كولوسى في آسيا الصغرى في قول بولس « أن أتى اليكم فأقبلوه » (كولوسى ٤ : ١٠) وفي ختام رسالة بولس الثانية الى تيموثاوس نقرا أن بولس يطلب من تيموثاوس أن يحضر اليه مرقس ، ويعبر بولس مرة ثانية عن تقديره لخدمة مرقس بقوله : « لأنه نافع لى للخدمة » (٢ تي ٤ : ١١) .

- ٣ -

كرآزة المقديس مرقس

في مصر

كانت الاسكندرية من أشهر المدن المصرية خاصة لوجودها على البحر الأبيض المتوسط حيث كانت ملقبة بالحضارات والثقافات المتنوعة . وقد اشتهرت الكنيسة المسيحية في مصر بأنها كنيسة الاسكندرية لتمييزها عن الكنائس المسيحية الأخرى في سائر اقاليم الشرق ، ولأنه يحتفل أن تكون رسالة الانجيل وصلت اولاً الى هذه المدينة باعتبارها مدخلاً الى مصر ، ونحن نتساءل : من أول من كرز بالانجيل في مصر ؟

يحدثنا سفر أعمال الرسل أنه كان من بين اليهود الأتقياء الذين حضروا حلول الروح القدس يوم الخمسين أناس من كل أمة تحت السماء ، وكان من بين هؤلاء بالتحديد أناس من مصر (أعمال ٢ : ٥ - ١١) ومن المحتمل جداً أن بعض الذين قبلوا المسيحية من بين الثلاثة آلاف نفس الذين اعتمدوا في ذلك اليوم كان هناك أناس من مصر ، ومن الطبيعي أن هذه المباشرة التي

ابتداً بها الله الكنيسة المسيحية انتشرت في البلدان المختلفة التي
جاءت منها ، وناذت بالرسالة المسيحية وغالبا تكون هذه بداية
الكنيسة المسيحية في مصر .

كذلك يحدثنا سفر أعمال الرسل انه في مستهل تاريخ
الكنيسة حدث اضطهاد عظيم على الكنيسة في اورشليم ، وتشتت
كثيرون من المسيحيين فجالوا مبشرين بالكلمة ، ولعل بعضهم لجأ
الى مصر لانها كانت من اقرب البلاد الى اورشليم ، وقد لجأ اليها
من قبل ابراهيم كذلك لجأ اليها يوسف ومريم العذراء المباركة
والطفل يسوع . لذلك فمن المحتمل جدا أن تكون المسيحية قد
وصلت الى مصر في تاريخ مبكر ، سابق لحيء مرقس اليها .

ونحن لا نستطيع أن نجد في كتابات الآباء المبكرين شيئا
عن مجيء القديس مرقس الى مصر ، ولكن بعض المراجع المتأخرة
نسبيا ذكرت ذلك . فقد جاء في مخطوط عربي لناسخه القمص
شنوده البرموسى ص ١١ - ١٥ ؛ وجاء في السنكسار جزء ١
صفحة ١٢٧ ، وتاريخ البطاركة لساويرس ابن المقفع أسقف
الاشمونين (عام ٩٥٠ م) أن مرقس بعد أن اشترك مع برنابا
فترة من الزمن ألهمه الروح القدس أن يحصل البشارة الى المدن
الخمس في شمال افريقيا ومنها أتى الى مصر .

ويروى السنكسار روايات شيقة عن حضور القديس مرقس
الى مصر ، ونزوله مدينة الاسكندرية ، وسيره في شوارعها متأملا
جمالها حزيناً على شرها ، وكيف أنه نسي الجوع والتعب حتى
المساء عندما انقطع سير حذائه فوقف ليصلحه عند اسكاف يدعى
حسانيا (ايفانوس) وكيف أنه أجرى معه معجزة شفاء وبشره
بالمسيح (قصة الكنيسة القبطية لايريدين المصرى جزء ١

ص ٢٤ - ٢٦) الا ان الأدلة التاريخية لمثل هذه الروايات لم يثبت
متوفرة علميا .

كما يستند البعض في حجتهم على حضور القديس مرقس
الى مصر الى قول بطرس الرسول في ختام رسالته الأولى : « تسلم
عليكم التي في بابل المختارة معكم ومرقس ابني » (١ بط ٥ : ١٣)
ويقولون أن المقصود ببابل هو حصن بابلليون في مصر القديمة الذي
أقامه اللاجئون من مدينة بابل الآشورية وأطلقوا عليه اسم
مدينتهم . الا أن المؤرخين الموثوق بهم استبعدوا هذا الافتراض
لأنه لا توجد دلائل مطلقا على زيارة بطرس الرسول لمصر ، كما أن
أغلب الشراح لهم رأى آخر في تفسير كلمة « بابل » التي كانت
تستخدم في العهد الجديد (في سفر الزؤيا مثلا) رمزا الى المدينة
الشريرة ويرجحون أن بطرس يشير الى مدينة روما (تفسير
باركلي : رسالة بطرس الرسول الأولى ، - ISBE) .

وحتى من يذكرون أن القديس مرقس زار مصر ، يؤكدون
أنه تركها بعد فترة قصيرة بناء على طلب الأخوة خوفا على حياته
بسبب نجاح خدمته ، ويذكرون أنه قام برسامة انيانوس أسقفا
على مصر .

ومن بين الأدلة التي يوردها البعض على حضور القديس
مرقس الى مصر ، وجود كنيسة باسمه في الاسكندرية يقال ان
رأسه مدفون فيها . فقد تكررت بعض الروايات أن مرقس عاد الى
مصر ، وأنه استشهد فيها صبيحة يوم عيد القيامة عام ٦٨ م
اذ قبضت عليه الجماهير وهي خارجة من احتفالها بعيد الاله
الوثنى سيرابيس ، وأودعوه السجن وفي اليوم التالي ربطوا حبالا
حول عنقه وأخذوا يجرونه على الأرض فلم يلبث ان انفصل رأسه
عن جسده ، ولما أرادوا أن يحرقوا جسده هبت عاصفة شديدة

فتفرقوا وبعد العاصفة أخذ المسيحيون جسده ورأسه ودفنوه في كنيسة القديس مرقس الاسكندرية . (قصة الكنيسة القبطية لايريس المصرى جزء ١ ص ٢٨) على أن هذه الرواية ليست محققة تاريخيا فضلا عن عدم احتمال صحة انفصال الرأس عن الجسد بمجرد الجر على الأرض . لكن التقاليد تروى أنه بعد مجمع خلقدونية في القرن الخامس الميلادى كان شائعا أن جسد القديس مرقس مدفون في الاسكندرية فنقل أنصار الامبراطور البيزنطى جسده الى كنيسة تابعة للخلقدونيين (الملكيين) الذين كانوا معارضين للكنيسة القبطية ، ومن هناك سرق بعض تجار البندقية الجسد ودفنوه في كاتدرائية القديس مرقس بالبندقية (فينيسيا) وقد ظل الجسد هناك الى ٢٤ يونيو ١٩٦٨ عندما نقلت الرفات الى الأنبا رويس بالقاهرة بعد الاتفاق بين البابا كيرلس السادس بابا الاسكندرية ، والبابا بولس السادس بابا روما .

وسواء كانت الروايات التى تروى عن كرازة القديس مرقس بمصر صحيحة كلها أو متفاوتة في درجة صحتها ، الا أنه من المؤكد ان الكنيسة المسيحية في مصر خاصة في القرون الأولى أسهمت بشكل ملحوظ في الفكر المسيحى في العالم كله ، وكان لها آباء أفذاذ من اللاهوتيين والفكرين ، ولذلك فهي تستحق كل تقدير واعتبار .

ان الكنيسة المسيحية في مصر ، وفي كل بلاد العالم تنتمى الى السيد المسيح الذى عمل بروحه في كل من قاموا بالكرازة بالانجيل ، ونحن من دراستنا للعهد الجديد نلاحظ أن الرسل الأطهار كانوا يرفضون رفضا قاطعا أن ينسب اليهم الفضل في تأسيس الكنائس وكانوا يتوجهون باللوم الى المسيحيين في مختلف البلدان عندما كانوا يسمعون انهم يعلنون انتماءهم الى هذا الرسول أو ذاك . والسبب في ذلك هو أن مثل هذه الدعاوى

تضعف روح الوحدة في الكنيسة الجامعة ، وتلقى ظللا على انتمائها الحقيقي للسيد المسيح مصدر وجودها وكيانها ، وقد كتب بولس الرسول الى كنيسة كورنثوس قائلا : « لأني أخبرت عنكم يا أخوتي من أهل خلوي أن بينكم خصومات ، فأنا أعنى هذا أن كل واحد منكم يقول أنا لبولس وأنا لأبلوس وأنا لصفاء وأنا للمسيح . هل أنقسم المسيح ؟ العمل بولس صلب من أجلكم أم باسم بولس اعتمدتم » (١ كو ١ : ١١ - ١٣) .

على أن انتماء الكنيسة لشخص المسيح لا ينبغي أن يجعلها تهمل سيرة آباء الكنيسة الأوائل الذين حفظوا ايمان الكنيسة وشهادتها ، بل على الكنيسة أن تتمثل بهم كما هم أيضا بالمسيح (١ كو ١١ : ١) . فكلما كانت قيادة الكنيسة قريبة من المسيح فكرا وعملا ، كانت مثلا يحتذى بها ، وأدعى الى طاعتها .

ومن هذا المطلق تكون القيمة الحقيقية لآباء الكنيسة سيرتهم المقدسة .

- ٤ -

ملاح الكنيسة المصرية في القرن الأول الميلادي

هل الكنيسة المسيحية في مصر اليوم تحمل نفس الملاح في نظام عبادتها وادارتها كما كانت في القرن الأول الميلادي ؟ هنا نسرع فنقول اننا نتمتع في خطأ كبير اذا تصورنا أن نظام الكنيسة الحالي في أي كنيسة مسيحية يشابه ويطابق تماما الكنيسة في عصر بولس وبطرس ومرقس . ولو قلنا ذلك نكون قد تجساهلنا عشرين قرنا من الزمان هو عمر الكنيسة المنظورة في عالمنا . فمعلوم

أن الكنيسة المسيحية الأولى كانت غاية في البساطة في مبانيها ونظامها وعبادتها .

كان المسيحيون يجتمعون في حجرة متسعة عادية أو في سراديب تحت الأرض أو في البيوت .

وكان نظام العبادة يتكون من اجتماعات دورية في أول الأسبوع (أعمال ٢٠ : ٧) لم تكن فيها طقوس بل صلوات وترانيم من الزامير وقراءات من العهد القديم ومن رسائل الرسل ووعظ أو تعليم ، وممارسة فريضة العشاء الرباني ، وعمودية المتجددين المنضمين إلى الكنيسة وأطفالهم (رو ١٦ : ٣ ، ٥ ، أع ٢ : ٤١ ، ٤٢ ، ١ : ٤ كو ١٤ : ٢٦) .

لم يكن أي رسول أو تلميذ يلقب بلقب كاهن ، ويرتدى زيا خاصا أثناء العبادة ، وكان الزسل يكتشفون بعض الموهوبين في الكنيسة فيرسمونهم شيوخا منبرين أو معلمين حسب مواهبهم ، هؤلاء هم القسوس أو الأساقفة ، وهي وظيفة واحدة وليست رتبة متدرجة (أعمال ٣٠ : ١٧ ، ٢٨ : ١ بط ٥ : ١) وكانت الكنيسة تختار شمامسة لخدمة الموائد وتوزيع الصدقات (أعمال ٦ : ٦) .

لقد كان الرسل متأثرين بفكرة السيد المسيح عن روحانية العبادة ، وإبتعادها عن المظاهر الخارجية ، وتركيز الاهتمام بالدرافئح الداخلية (يوحنا ٤ : ٢٤ ؟ يوحنا ٦ : ٦٣ ؟ كولوسي ٢ : ١٦ ، متى ٦ : ١ - ١٨) .

كانت الكنائس تكاد تكون مستقلة احداها عن الأخرى تجمعها وحدة الايمان وشركة المحبة فلم تكن في الكنيسة المسيحية الأولى رياسات متدرجة ، ودرجات كهنوتية من الأدنى إلى الأعلى .

وعندما كانت تعترض المسيحية بدعة أو يهددها فكر هرطوقى كان اساقفة الكنيسة والمفكرون فيها يجتمعون معا لمناقشتها وهكذا ظهرت قوانين الايمان .

في عهد الرسل وبعدهم بزمان طويل لم تكن هناك كنائس كاثوليكية أو أرثوذكسية أو أنجيلية ؛ والكنائس التي أسهم بطرس ويولس ومرقس وغيرهم في انشائها لم تكن تسمى بهذا الاسم أو ذلك . والمواقع أن تعبير الكنيسة « الكاثوليكية » ومعناه الكنيسة الجامعة لم يظهر الا في وقت متأخر عندما شعر قادة الكنيسة أن هناك أفكارا غريبة تهدد المسيحية كالفنوسية ، فابتدأوا يهتمون بوحدة الفكر والقيادة في الكنيسة باعتبارها وحدة شاملة أو كنيسة جامعة (كاثوليكية) . وقد اشتهرت القرون الأولى في تاريخ المسيحية بكثرة الجدل في العقيدة ، وكانت مجامع الكنيسة تتفق على العقيدة السليمة المستقيمة وبذلك ظهر الى الوجود التعبير « أرثوذكسي » ومعناه صاحب الفكر السليم المستقيم . الا أن الكنيسة فيما بعد عانت كثيرا من الرغبة في السيادة من جانب بعض الاساقفة ، هذا فضلا عن الخلافات العقائدية فتغيرت ملامح الكنيسة عما كانت عليه في عصرها الرسولي الأول . ومع ذلك كان كل جانب في الكنيسة يعتبر أنه هو الكنيسة الجامعة (الكاثوليكية) وغيره ليس ضمن حظيرة الكنيسة ؛ وكان كل جانب من الكنيسة يعتبر أنه وحده على حق وصاحب العقيدة السليمة (أرثوذكسي) وغيره بعيد عن الحق - وساعد على ذلك النزعات الاقليمية والعوامل السياسية . وقد كان هذا ضمن أسباب انفصال الكنائس الشرقية عن الغربية .

ومن يدرس تاريخ الكنيسة في مصر ، يلاحظ أنه في مجمع خلقدونية عام ٤٥١ م اختلف الاساقفة حول طبيعة السيد المسيح فنابى ديوسقورس اسقف الاسكندرية بمذهب الطبيعة الواحدة ، وانضم اليه نفر قليل من الاساقفة ، وعارضه باقى الاساقفة

وعزلوه فنشأت الكنائس غير الخلقونية انثى منها الكنيسة
المقبطية الأرثوذكسية والأرمنية الأرثوذكسية واليعاقبة - أما
الباقون فأقرروا قرارات مجمع خلقونونية وأصبح لكرسى الاسكندرية
بطريكان حتى هذا اليوم أحدهما لغير الختندونيين ، والثانى
للخلقونيين المعروفين باسم الروم الأرثوذكس . وجاءت ظروف
متنوعة باعدت بين كل الكنائس الشرقية والكنيسة الغربية التى
احتفظت باسم الكاثوليكية أى الجامعة .

ثم جاءت حركة الإصلاح الدينى فى القرن السادس عشر نتيجة
لنهضات متكررة فى داخل الكنيسة القائمة حاولت أن تعيد الى
الكنيسة بساطة الايمان وروحانية العبادة والتمسك بالحق
الكتابى الانجيلى دون العقاليد ، لتكون الكنيسة أقرب ما يكون
الى عصر الرسل ، ولكن ازاء جهود الكنيسة القائمة فى ذلك
الوقت ، اضطرت حركة الإصلاح أن تنفصل عن الكنيسة لينشأ
المذهب الانجيلى أو البروتستانتى (المحتج على ظروف وحيياة
الكنيسة فى ذلك الوقت) .

وفى العصر الحديث نهضت مختلف الكنائس ، ونشأت الحركة
المسكونية التى تنادى بوحدة الكنيسة فى تنوع ، ليس وحدة
الرياسة ، بل وحدة الروح . ولو أن الكنيسة استجابت لعمل
الروح القدس ، وعادت الى بساطة الايمان ، وروحانية العبادة ،
وكلمة الله الصادقة ، فانها تكون فعلا كنيسة مستقيمة الرأى
(أرثوذكسية) ، ويعتبر المؤمنون الحقيقيون أنفسهم جسدا واحدا
فى كنيسة جامعة (كاثوليكية) ، وبذلك تكون الكنيسة حقا
« انجيلية » - وابواب الجحيم لن تقوى عليها . آمين .

ثانياً :

نشأة الكنيسة الانجيلية بمصر

(*) نشر للمؤلف في كتاب « ايمانى الانجيلى » سنة ١٩٧٧ .

٩٧

(م ٧ - أضواء على الاصلاح)

نشأ المذهب الانجيلي (وهو معروف في الخارج باسم الكنيسة المشيخية) نتيجة لحركة الاصلاح الديني التي قام بها مارتن لوثر، فقد كان من قادة المصلحين الذين ساروا على منهج لوثر . لاهوتي فرنسي اسمه « جون كلفن » اشتهر بعقود دراساته اللاهوتية ، ووضع مؤلفا ضخما سماه « النظم المشيخية » فيه شرح العقيدة الكتابية شرحا مفصلا ، وقد عاش جون كلفن في جنيف بسويسرا وأنشأ فيها مدارس لتعليم المسيحيين للعقيدة المسيحية ، لأنه أعلن أن المسيحية والتعليم مرتبطان ارتباطا وثيقا ، ومن يرد مسيحية قوية ، فيجب عليه أن يفتح باب الدراسة واسعا للمسيحيين .

وقد وضع جون كلفن النظام المشيخي في الكنيسة ، والذي بمقتضاه يختار الشعب من بينهم شمامسة لخدمة أمور الكنيسة الزمانية وجمع التقدمة والعناية بخدمة الفقراء ، وشيوخا مديرين وهم الذين يديرون أمور الكنيسة الادارية ويزورون الاعضاء ويفقدونهم ، وشيخا معلما هو القسيس الذي يعظ بالكلمة ، ويرأس مجلس الكنيسة .

وعقيدة الكنيسة المشيخية مبنية على أساس الكتاب المقدس وهي التي نقدمها اليك في هذا الكتاب بايجاز - أما نظامها الاداري فهو مبني على ما نفهمه من نظام كنيسة العهد الجديد ، مع ما يلزم من ترتيبات ادارية ضرورية نتيجة لاتساع الكنيسة في عدة اقاليم .

وقد انتشر المذهب المشيخي في أوروبا خاصة في سويسرا ثم انتقل الى اسكتلندا . وعندما هاجر كثيرون من البروتستانت من أوروبا الى أمريكا نتيجة للاضطهادات الدينية في عهد بعض الملوك ، انتشر المذهب المشيخي في أمريكا .

أما تاريخ الكنيسة المشيخية في بلادنا المصرية فيرجع الى عام ١٨٥٤ عندما جاء بعض المرسلين من هذا المذهب ، ووجدوا

الكنيسة المسيحية في مصر في حالة من الضعف والركود نتيجة لضعف التعليم وعدم قزاعة الكتاب المقدس بلغة الشعب المعسوفة وغير ذلك من الأسباب ، فابتدأوا يعلمون الناس بكلام الانجيل ، وكان قد سبقهم بعض المرسلين من أوروبا حاولوا جاهدين القيسام بحركة اصلاحية داخل الكنيسة التقليدية ، ولكنهم فشلوا بسبب معارضة البطاركة والاساقفة لهم ، لذلك اضطر هؤلاء المرسلون أن يقوموا بجهدهم الكرازي خارج نطاق هذه الكنيسة .

وفي سنة ١٨٦٠ اشترك سبع شخصيات على مائدة الرب في الاسكندرية كان منهم سيده ، وكان هؤلاء السبعة هم النواة الأولى للكنيسة الانجيلية في مصر .

وفي ١٥ فبراير سنة ١٨٦٣ رسم أربعة شيوخ وثلاثة شمامسة لأول كنيسة انجيلية في مصر وهي كنيسة الازبيكية ، وفي نفس السنة أنشئت كلية اللاهوت الانجيلية لاعداد القسوس اللازمين لخدمة الكنيسة .

ثم توالى تخرج القسوس من هذه الكلية وانتشارهم في مختلف البلدان ، وهكذا تأسست الكنائس الانجيلية في أنحاء البلاد - وقد دعيت الكنيسة باسم «الانجيلية» بدلا من «المسيحية» لأن الناس كانوا يلاحظون أن هذه الكنيسة تهتم بتعليم الناس عن الاتجيل وتجعله أساسا لعقيدها .

ونظام الكنيسة ديمقراطي ، فالشعب يختار الراعي والشيوخ ومنهم يتكون مجلس الكنيسة في بلد معين ، ويشرف على مجالس الكنائس المحلية في إقليم معين مجمع يتكون من جميع القسوس في هذا الاقليم مضافا اليهم شيخ واحد منتخب عن كل كنيسة ، ويجتمع مجلس الكنيسة دوريا ، ويجتمع المجمع ثلاث مرات في السنة ، ويجتمع جميع القسوس وشيوخ عن كل كنيسة في مصر كلها مرة واحدة في السنة على هيئة « سنودس » ، أي مجمع مقدس أعلى ، وهو يشرف على كل نواحي الخدمة الروحية في مصر .

ويختار كل مجمع وكذلك يختار السنودس كل عام رئيسا له من بين أعضائه يقود الجلسة أو الجلسات التي تعقد طيلة هذا العام . وهكذا تترك الكنيسة قيادتها للروح القدس وللجماعة المستنيرة بالروح القدس .

وسنودس النيل الانجيلي هو المجمع الأعلى للكنيسة الانجيلية المشيخية في مصر وهو يتكون من ثمانية مجامع : هي مجمع الطلثا ، مجمع القاهرة ، مجمع الأقاليم الوسطى ، مجمع النيا ، مجمع ملوى ، مجمع أسبوط ، مجمع سوهاج ، مجمع الأقاليم العليا .

وكانت هناك علاقة ودية بين الكنيسة الانجيلية . والكنيسة المشيخية في الولايات المتحدة الأمريكية ، إذ كانت ترسل مندوبين لحضور المحفل العام لهذه الكنيسة ، الا أنه ابتداء من سنة ١٩٥٨ خرج السنودس من رابطة المحفل العام للكنيسة المشيخية المتحدة المذكورة ، وصار محفلا عاما قائما بذاته . الا أن الكنيسة الانجيلية كانت مستقلة استقلالاً مالياً عن الكنيسة في أمريكا منذ عام ١٩٢٦

ويضيق المجال هنا عن ذكر الرسالة العظيمة التي قامت وتقوم بها الكنيسة الانجيلية في مصر . في خدمة التعليم والكراسة ونشر الانجيل ، فان تأثيرها تعداها الى الكنائس الأخرى وأصبحت رائدة في خدمة المسيح . كما انها أرسلت مرسلين منها الى السودان ، وفي وقت من الأوقات كان مجمع السودان جزءا من السنودس ثم استقل أخيرا . وللكنيسة قسوس يخدمون في كنائس بلدان كثيرة في الشرق العربي مثل سوريا ولبنان والعراق والبحرين ، والكويت ، ومنهم من يخدم في أوروبا وأمريكا - كما تقوم الكنيسة بخدمة اجتماعية واسعة عن طريق الهيئة القبطية الانجيلية للخدمات الاجتماعية التي تهدف الى تنمية المجتمع .

وكذلك عن طريق المدارس الانجيلية المنتشرة في عدد كبير من بلاد الجمهورية .



أحدثت حركة الإصلاح هزة
قوية لافى العقائد الدينية
فحسب ، بل فى مفاهيم الحرية
وحق الانسان فى التعبير عن
رأيه .

وهذا الكتاب يقدم لك
دراسة مبسطة لتعرف على جذور
هذه الحركة وآثارها .

كتاب ينبغي أن يقرأه كل
مثقف ليعرف تاريخ العقيدة
الانجيلية ونشأتها .